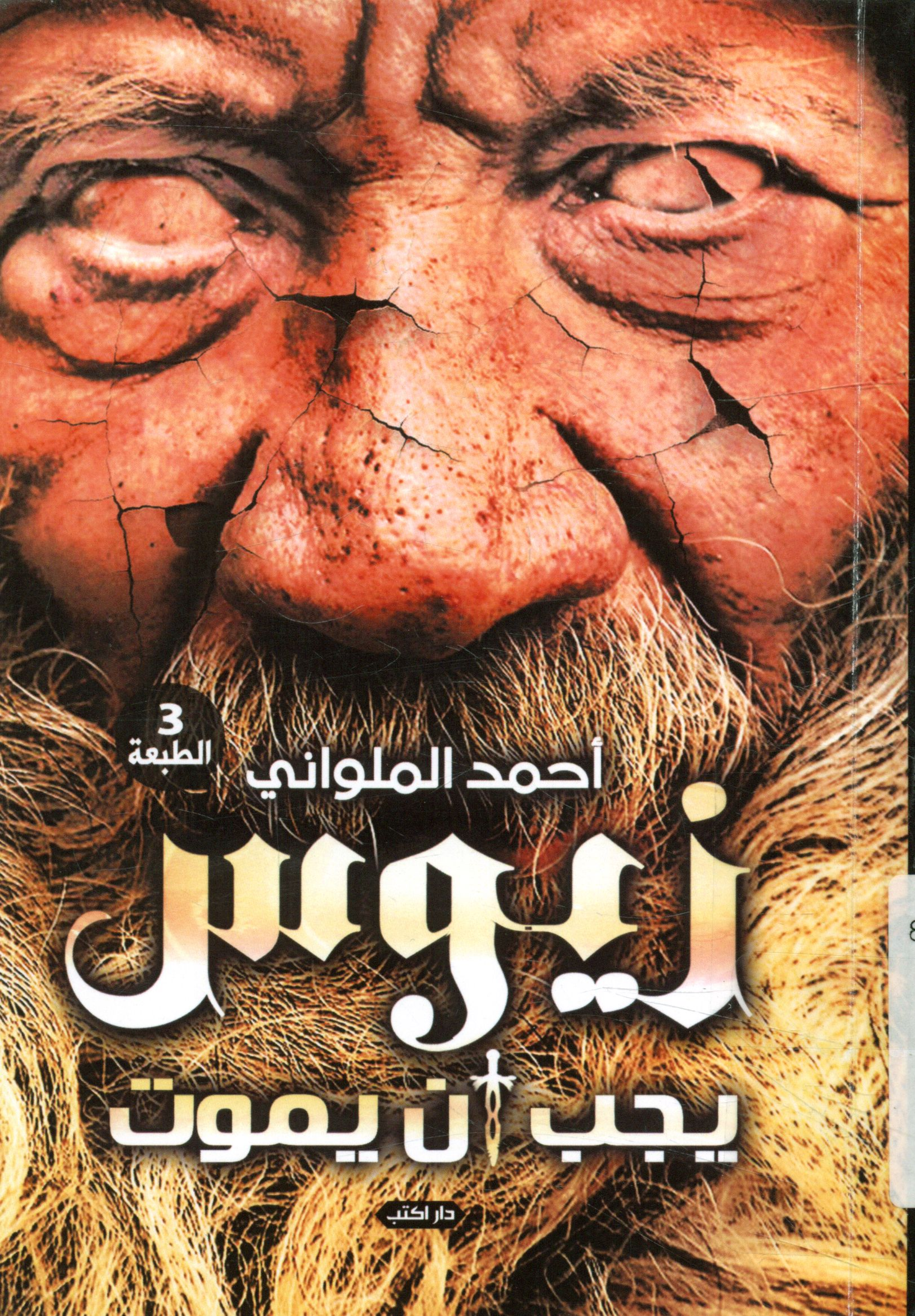

الطبعة 3
أحمد الملواني
زيوس
يجب أن يموت
دار اكتب

زيـــوس يجب أن يمـوت

زيوس يجب أن يموت

أحمد الملواني

رواية

تدقيق لغوي : د. إيمان الدواخلي

تصميم الغلاف : محمد عيـ

رقم الإيداع : - 2014/9229

-I.S.B.N: 978-977-488-295-1

دار اكتب للنشر والتوزيع

الإدارة : 10 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة .

المدير العام : يحيى هاشم

هاتف : 01144552557 - 01147633268

E – mail :daroktob1@yahoo.com

Facebook : دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الثالثة ، 2015م

زيـــوس يجب أن يمـوت

أحمد الملواني

رواية



دار اكتب للنشر والتوزيع

إهداء

كنت دايما بقول: لو فيه منك خمسة بس في الوسط الأدبي، عندهم نفس حماسك للشباب، وصبرك وطولة بالك في التعامل مع كل صاحب موهبة في أول الطريق، كان حال الأدب في مصر اختلف كتير.

أنا اتعلمت منك كتير.. مش بس في الكتابة، ولكن إنسانيًا.. اتعلمت إن مهما كانت مشاغلي، لازم يبقى عندي مكان لمساعدة أي زميل أو كاتب مبتدئ يلجأ لي. دايمًا بوصفك بالمعلم الأول.. والمثل الأعلى.. رغم قناعتي إن ده شوية عليك. زي ما هو شوية عليك إني أهدي هذا العمل ـ وكل حرف كتبه قلمي أو لسة هيكتبه ـ إليك... د.سيد البحراوي

1

أنا كرونوس..

فلاح من قرية عند سفح تل...

ما بين طيبة وأثينا.

أنا كرونوس..

سميت على اسم العملاق القديم..

والد الآلهة..

ابن الأرض..

كرونوس ابن أورانوس.

أنا كرونوس..

كرونوس الفقير..

التعيس..

أحمل فقري على عاتقي..

مكبل بالنبذ والوحدة..

يتشاءمون مني..

ومن اسمي..

وكأنني من صنعت قدري..

ما ذنبي أنا؟

أعاني منذ مولدي..

زرعي قليل..

النبيذ لا ينزف من طرح كَرْمي الشحيح..

والزيت لا يسيل من زيتوني..

فما ذنبي؟

يقولون:

"كرونوس يحمل القحط أينما حل.."

يقولون:

"كرونوس مكبل بغضب الآلهة.."

يقولون:

"كرونوس معاقب.."

فأتحداهم..

"أيعرف أحدكم جريمة لي؟"

فيصمتون..

اللعنة عليكم..

أنا كرونوس..

إن كنتم تظنون قدري بيدي..

ليكن..

سأريكم كيف سيغير كرونوس قدره..

بحق صواعق زيوس..

بحق زلازل بوسيدون..

بحق براكين هيفيستوس..

بحق آلهة الأوليمب في عليائهم..

سيلقنكم كرونوس درسًا لن ينسى..

سترون كيف يتحدى هذا الضئيل الآلهة..

سأغير قدري..

سأرسم مصيري بيدي..

أو أهلك على المحاولة..

***

أين ذهب ذلك اللعين؟

يخرجني عويله عن تأملي الصامت.. دقائق مضت عليّ، وأنا متجمد كتمثال أمام أوراقي، متوحد مع عالم تترامى أركانه في خيالي.. أركض هنا وهناك خلف شخصياتي، وخيوط حكايتي.. إلى أن تعالى

الصوت المزعج لرنين الهاتف، المختفي تحت الفوضى التي تغلف أرجاء حجرة نومي..

أعثر عليه أخيرًا.. شاشته تتألق برقم مجهول. أنطلق، عبر صالة بيتي المزدحمة، نحو الشرفة، حيث يصير صوت محدثي أكثر وضوحًا.. أصطدم في طريقي بذلك المكتب الضخم، الذي يزيد من ضآلة فراغ الصالة، فأطلق سبة بذيئة موجهة للا أحد. أخرج إلى الشرفة السابحة في برد الشتاء، وأضغط زر الاستقبال..

ـ ألو..

ـ أستاذ أحمد؟

ـ أجل..

ـ أنا مدام يوسف قطيط..

قلبي ينبض بعنف مفاجئ.. عقلي يراوغ هاجسًا مخيفًا.. ماذا جرى لك يا أستاذي؟ لم يحدث من قبل أن هاتفتني زوجتك..

ـ خير؟

ـ يوسف مريض، ويرغب في رؤيتك..

يتهدج صوتي.. تتجمع دموعي..لا إراديًا أولي ظهري للصورة الضخمة، التي تملأ اللافتة الدعائية أمام شرفتي، فارًا من ملاحقتها الدائمة لتحركاتي..

ـ ما به؟

ــ جلطة في المخ..

قبل أن أنهار تدركني..

ــ ولكن اطمئن.. لقد شفيَت ــ والحمــد لله ــ هــو الآن في مرحلة النقاهة، والعلاج الطبيعي..

ــ متى حدث هذا؟

ــ منذ ثلاثة أيام..

كدت أن أغضب.. كيف لم أعرف بشيء كهذا؟ عندها تذكرت أكثر من شهر مضى دون أن يكون بيني وبينه أي اتــصال مــن أي نوع.. ألجمتني المعلومة البسيطة/ التي استعدتها بغتة.. أي وغد أنــا؟ مشاغل..؟! أي مشاغل تشغلني عن الرجل، الذي لم أفتقــده في أي وقت احتجته طوال سنوات صداقتنا..

لدقائق ــ بعد انتهاء المكالمة ــ أحافظ على خلــوتي بنفــسي في الشرفة.. أحاول أن أواجهها بذنبها.. الغريب أن إحساس الــذنب يراوغني، ويتركني من جديد لعوالمي الخيالية، فأعود للتفكير في مصير كرونوس..

أحاول أن أنفضه عن رأسي.. أبسط حقوق الرجل علي أن آسف لأجله.. أن أشعر بالذنب لبعدي عنه في أزمة مرضه.. ولكن.. مالي لا أبالي.. لماذا لا أستشعر الحزن الكافي؟ لماذا لا أنهار، أو حــتى تجــري دموعي؟

أستاذنا سقط في مرضه.. فأين كنا؟ أنا هنا غــارق في روايــتي الجديدة.. محمد في السجن، كالعادة.. وعبــد الــرحمن متكيــف – بنجاح– مع لامبالاته. أتذكر كلمته الأشهر..

ـ محمد عطوة مدعي.. ويوسف قطيط أحمق، لا يريد أن يشفى من حماقته.. أما أنا وأنت، فقد فهمنا الحقيقة مبكرًا.. نحن من سنرث الأرض.. والمجد للامبالاة..

الوجه المتأمل، في الصورة المنصوبة أمامي عبر الشارع، ينظر مباشرة إلى عمق عيني، فأشيح بوجهي.. اللعنة على هذه اللافتة، والصورة السخيفة التي تتصدرها.. ما معنى هذه النظرة الغريبة؟ وذلك التعبير المضحك المرسوم على صفحة الوجه.. بل ما معنى الاحتفاظ بهذه اللافتة الدعائية لانتخابات انقضت منذ أربع سنوات؟!

أغادر الشرفة عائدًا إلى حجرة نومي.. زوجتي تزجرني..

ـ اغلق باب الشرفة خلفك، ألا تحس شدة البرد..

أعود، فأغلق باب الشرفة، ألقي إليها بكلمة اعتذار في طريقي حيث جلست إلى طاولة السفرة، تحاول تلقين وائل الكلمات الأولية في اللغة الإنجليزية. رأيها في هذا أن تعليم الطفل يجب أن يبدأ من البيت..

ـ يجب أن يلتحق وائل بمدرسة لغات، فهو ليس أقل من أبناء شقيقتك، وليس أبناء صديقك عبد الرحمن بأفضل منه في شيء.

وهذا يستتبع بالضرورة أن تبدأ هي نفسها في تعلم قواعد اللغة الإنجليزية حتى تتابع دراسته..

ـ يفترض أن يكون هذا دورك أنت.. فلغتك الإنجليزية جيدة..

ـ ومن أين لي بالوقت؟

ــ أعرف أن روايتك الجديدة تملأ كل وقتك، ولذا لن أطلب منك سوى مئتي جنيه، نفقة فصول تعليم اللغة الإنجليزية..

ــ من أجل من؟!

ــ من أجلي..

في البدء نفقات إلحاق وائل بمدرسة اللغات، ثم نفقة فصول اللغة الإنجليزية لها! وكيف لي أن أرفض، وقد زالت حجتي.. فمرتب الحكومة الهزيل، الذي طالما تذرعت به، أضيف إليه مبلغًا جيدًا من المال في البنك، ننفق منه كما نشاء.. (نعوض ما فاتنا) على حد تعبير زوجتي..

أخرج من خواطري مع اكتمال ارتدائي لملابسي، أرتب الأوراق المكدسة على الطاولة الصغيرة في حجرة نومي، ألقي نظرة قصيرة على آخر ما وصلت إليه في كتابتي، ثم أغادر..

* * *

أترجل من الحافلة الصغيرة (الميني باص) أمام باب المستشفى، مع تهيؤ عبد الرحمن لولوج سيارته.. يترك باب سيارته مفتوحًا، ويتقدم مني معانقًا. أتذكر لحظتها طول المدة التي مرت علينا بلا لقاء، فألاقيه بالتحيات الحارة، والسؤال عن الصحة، وأحوال العمل.

ــ لا أصدق أنني سبقتك لزيارة يوسف قطيط.

ــ هذا لإنك من يمتلك السيارة وليس أنا.

بسخرية يقول:

ـ أنا لا أصدق أن أديبًا كبيرًا مثلك يستقل الحافلة..

ـ عندما تعوقني شهرتي عن السير في الشوارع، ويحجب زحام المعجبين عني سبل المواصلات.. وقتها سأفكر في شراء سيارة.

ـ ولماذا لا تفعل الآن؟ أم تراك أنفقت نقود الجائزة؟

ـ أنت تتحدث مثل زوجتي..

ثم يودعني ضاحكًا على وعدٍ بلقاءٍ قريب.

تغير عبد الرحمن كثيرًا، بات يقيم الكثير من الود والتقدير للماديات. الغريب أن محمد عطوة أكثر ثراءًا منه! فعبد الرحمن مكاوي مهما كان راتبه من العمل كمهندس ماكينات، في شركة الأدوية تلك، يبقى في النهاية مجرد موظف، أما محمد عطوة، فهو صاحب شركة مقاولات، ومؤخرًا صعدت أسهم شركته، وتميز اسمها بشكل ملفت. ومع هذا لا أرى محمد يعطي المال كل هذا الاحترام، مازال هو نفسه محمد عطوة، طالب كلية الهندسة، الذي عرفته منذ ما يزيد عن العشرين عامًا، نفس التدين، نفس الحب للخير، نفس الحماس، والانشغال بقضايا البلد. ما زاد عليه سوى صعوده السريع لدرجات العضوية في جماعة الإخوان المسلمين، حتى مثلهم في انتخابات البرلمان الأخيرة، عن دائرة تم إلغاء انتخاباهما، ولم تجر حتى الآن!

عبرت باب الحجرة البيضاء بخطى مترددة. أخيرًا خالجني شيء من الحزن المرجو.. حالة قلق تلبستني من أن أرى على أستاذي ما لا أحب.. كان في فراشه يقرأ جريدة ما، عندما رفع عينيه فرآني..

ـــ أيعقل أن يسبقك عبد الرحمن مكاوي لزيارتي؟

بادرني بها مازحًا.. ولكنني أجبته جادًا:

ـــ هو يملك سيارة يا أستاذي..

ثم ألقيت نفسي في محيط ذراعيه المفرودين..

ـــ حمدًا لله على سلامتك..

لاحظت الحركة غير الطبيعية ليده اليسرى، فآثرت الصمت، وقررت ألا أحدثه في أي شيء يدفعه للتفكير فيما يمر به من معاناة.. ولكن يبدو أن رغبته لم تتلاقَ مع رغبتي..

ـــ أرأيت ما حدث لي؟

ـــ سلامتك يا أستاذي..

شرد لفترة، وبدا وكأنه يستعيد ذكرى ما. أردت أن أبادره بأي قول يسري عنه، ويمنعه من اقتحام فيض الذكريات وهو في هذه الحالة، ولكنني شعرت أنه ما طلب رؤيتي إلا لهذا السبب. فهو لم يعتد أن يلقي بما يثقل كاهله إلا أمامي أنا، فقد كان حسن إنصاتي هو سبب قيام الصداقة بيننا، وقت أن كان هو مدرسًا بكلية الهندسة، وأنا مجرد طالب بها، بعد أن جمعنا حب الأدب، والثورة ضد حرب الخليج. لذا قررت أن أحترم رغبته في الحكي، وأن أنصت له كما اعتدت دائمًا..

ـــ رفضوا سفري إلى إنجلترا لحضور مؤتمر دعاني إليه أحد الأصدقاء من المهاجرين المصريين..

ـــ من هم الذين رفضوا؟ الجامعة؟

أطلق ابتسامة مريرة، لوث بها صفاء وجهه..

ـــ أمن الدولة..

لما لاحظ حيرتي، أضاف:

ـــ ألا تعرف أن أستاذ الجامعة، إذا رشح للسفر في مهمة، أو بعثة تحت لواء الجامعة، عليه أن يملأ استمارة عنوانها (استطلاع رأي الأمن)..

ثم عاد يتشح بابتسامته المريرة..

ـــ خطئي أنني أردت أن توجه الدعوة لي من خلال الجامعة، لكي أذهب إلى المؤتمر ممثلاً لها، حاملاً اسمها. وهذا ما وضعني تحت رحمة هذه الاستمارة..

بمقدوري أن أتخيل مئات الأسباب، تضع يوسف قطيط بين أساتذة الجامعة غير المرحب بهم أمنيًا؛ إلا أنني أنصت إليه باهتمام وهو يوضح..

ـــ الأمر متعلق بنشاطي المشبوه.. تصور؟ نشاط مشبوه!.. يقصدون عضويتي في مجموعة 9 مارس بالطبع. تخيل أن يصير العمل على استقلال الجامعة، ضربًا من ضروب النشاط المشبوه!

كان يتحدث بحماس دفعني لا إراديًا إلى الشرود عن متابعته، واستعادة مقولة عبد الرحمن..

" يوسف قطيط أحمق، لا يريد أن يشفى من حماقته..."

هل من الخطأ أن تراودني فكرة كتلك عن أستاذي؟ أم إنه بالفعل يبالغ؟ هل يعقل أن هذا الرجل، الذي مارس كل أنواع الغضب في الجامعة، بدءً من حركة الطلاب قبل حرب أكتوبر، ومظاهرات يناير 1977، وحتى المظاهرات المندّدة بحرب الخليج – والتي قادنا فيها من موقعه بين أعضاء هيئة التدريس– هل يعقل أنه لم يفهم اللعبة بعد؟ هل يمكن أن يستفزه تصرف متوقع كهذا من قبل الأمن، لدرجة إصابته بجلطة دماغية؟!

ــ أنا لا أفهم.. إلى أين يقودون هذه الدولة؟

شاردًا أغمغم:

ــ الموكب ينطلق مسرعًا، لا قبل لي بإيقافه.. يقودني إلى مصير لا قبل لي بمواجهته..

يغرق في وجهي متأملاً.. يسألني:

ــ ما هذا الذي تقول؟

فأبتسم محرجًا..

ــ أعتذر يا أستاذي.. ربما كانت كلماتك ملهمة لي بشكلٍ ما.

يشرق وجهه بابتسامة، ويواجهني بنظرة أبوية..

أبقى معه لوقت طويل، أحدثه عن أحوالي، أحكي له ملخص روايتي الجديدة، يحدثني بما يعرفه عن الميثولوجيا الإغريقية، ويرشح لي أكثر من كتاب لقراءته. يتلو عليّ صورًا من الشعر تداعب مخيلته

هذه الأيام. وعندما نعود زوجته محملة بالأغراض التي ذهبت لإحضارها من منزلهما، أهم بالانصراف، فيستوقفني مبتسمًا..

ــ كدت أنسى..

تنبهني كلمته، فأتوقف لذ نابعة..

ــ كل عام وأنت بخير، اليوم عيد مولدك.. أم تراك نسيت كالعادة؟

أتجول شاردًا في ملامحه وأفكر.. أربعون عامًا..

* * *

أربعون عامًا مضوا أيها الكاتب.. طفل أنا مازلت.. ذلك الشاب الغر الذي يتعلم الحياة مازال يسكنني.. ماذا تغير فيّ منذ أيام الجامعة؟ لا شيء. أم تغيرت أشياءٌ في أعماقٍ بعيدةٍ عن رصدي؟!

محمد عطوة لم يتغير..

يوسف قطيط لم يتغير..

ربما تغيرت مصائرهما، وفقدا ما كانا يظنانه ينتظرهما مستقبلاً؛

ولكنهما لم يتغيرا..

حتى عبد الرحمن، لم يتغير بالدرجة التي يظنها عن نفسه. ربما تغيرت نظرته، ربما فتر حماسه للبلد، وودع أيام الغضب والكبرياء.. اختلف مصيره بالتأكيد عما ظنناه جميعًا؛ ولكنه مازال هو نفسه، الشاب الساخر، المفعم بحب الحياة كما كان.

فهل تغيرت أنا؟

أربعون عامًا.. رقم كبير يدير الرأس..

تقتحم عليّ زوجتي عزلتي الاختيارية في حجرة نومنا.. تعرف أنها لا يجب أن تعبر هذا الباب طالما أنه مغلق.. تلون وجهها بابتسامة اعتذار خجلة، في يدها كتاب اللغة الإنجليزية، تطلب مني أن ألقنها طريقة نطق كلمة ما — لم تدرسها بعد في فصلها التعليمي — لكي تقرأها على أذني وائل.

عندما تغادر، معيدة الباب إلى وضعية العزل، أتأمل أركان الحجرة الضيقة.. الفوضى باتت سمة أساسية هنا، جزء من أناقتها لا يمكن تغييره. كتبي في كل مكان، اختلط فيها محفوظ، وماركيز، وسارتر، بيوسف إدريس، وودان براون، وبهاء طاهر. يجب أن ننتقل إلى شقة أكبر، يجب أن تكون عندي مكتبة تليق بأديب، فقط عندما أجد النجاح الذي أرجوه.

أصف الأوراق أمامي.. أراجع ما وصلت إليه من أحداث الرواية.. أشعر باختناق لا مبرر له في هذه الأجواء الباردة. اختناق يدفعني دفعًا نحو النافذة، أفتحها على مصراعيها، أشعر بشيء من الراحة للخروج من عزلتي إلى العالم الواسع. ولكنني أجد العالم الواسع مظللاً بتلك الصورة السخيفة في اللافتة.

دائمًا ينظر باتجاهي مهما غيرت من وضعيتي. وجهه مرسوم بدقة التكنولوجيا الرقمية لأحدث برامج تعديل الصور، ليصير أصغر عمرًا، وأجمل محيا..

أشيح بوجهي عنه إلى السماء، فأعثر على وجه محمد عطوة بين النجوم يخبرني...

ـ ... إما أن أفعل ما أفعله.. أو أموت كمدًا..

أعرف يا محمد.. أعرف انك ما انطبعت على الصمت.. أعرف أن روحك قلقة تطلب الكمال.. أعرف إنك لن ترتاح طالما لم تجد البلد

الذي تحلم به بعد.. أعرف إنك مؤرق بصناعة المصير.. ولكن إلى متى يا محمد؟

ـ ... أعرف إنك وعبد الرحمن اخترتما الانسحاب.. ولكنني لا أستطيع..

أعرف يا محمد.. برغم اختلافي معك، واعتراضي على الطريق الذي اخترته لتحقيق أحلامك.. ولكن التدين الذي عرفت به أيام الجامعة، كان يرسم لك هذا الطريق، ويقودك إلى التماس مع فكر الجماعة، والانزلاق إلى ركابها.

لا أعرف لماذا الآن أستشعر حالة الحنين تلك لمحمد عطوة؛ حتى إنني أجرب أن أطلب رقم هاتفه، عله يكون قد غادر سجنه. إلا أن الصوت الأنثوي البارد يخبرني أن الهاتف مازال مغلقًا، فأغلق النافذة، وأعود من جديد لأوراقي، وعالمي الخاص.

أربعون عامًا..

لو مت الآن سيكون كشف حسابي هو الأقصر.. درست الهندسة، لأتخرج في كلية قمة.. اشتغلت بشركة غزل حكو... لمجرد

أن أشتغل.. تزوجت، لكي أتزوج!.. صرت أبًا.. لكي أصير ــ مثل كل الناس ــ أبًا!

أربعون عامًا..

ليس من بينهم يوم أجمل من هذا اليوم القريب، الذي تلقيت فيه اتصالاً هاتفيًا من تلك الدولة الخليجية، يخبرني بفوز روايتي بالجائزة الأولى في مسابقتهم الأدبية الكبرى.

لأول مرة أقدّر على شيء فعلته، فكان هذا هو إنجازي الأول والأخير. فقط عليّ أن أتمسك بتلابيب الفرصة.. لا يجب أن أغرب الآن. إنها فرصتي لكي أصنع لنفسي شروقًا. لهذا حصلت على إجازة من عملي لستة أشهر بدون راتب، متفرغًا لروايتي الجديدة. واعتمدت في الإنفاق على مبلغ الجائزة، أسحب منه عن طريق البنك قدر احتياجي، محاولاً قدر الإمكان تعطيل أفكار زوجتي، التي مازالت تنسكب من موطن الأحلام برأسها منذ أن نلت الجائزة. فغدًا قد نمتلك سيارة، وقد نغادر تلك الشقة الضيقة الخانقة إلى أخرى أرحب، لا تطل على وجه سمج يراقب قاطنيها!!

فقط عندما أحسن استغلال تلك الفرصة، وأرسخ وجودي..

2

القرية خالية..

ليل شهر مارس غطى الشوارع..

لم يطلع القمر..

وبضع غيمات وارت النجوم..

أدور في الطرقات القذرة قبيل الغروب..

أتنسم عبق عصير العنب..

السائل من المحصول الوفير.

وحدي أسير..

لا يصاحبني سوى ثغاء العنزات..

من خلف أبواب الدور المغلقة..

جميع القرويين ارتحلوا من الصباح الباكر..

إلى أثينا..

لحضور مهرجان ديونيسيا..

الذي يقام سنويًا للإله ديونيسيوس..

رب النبيذ والكروم..

إله المرح واللهو والعربدة..

برغم أن قريتنا تقيم بدورها مهرجانًا مشابهًا في الشتاء..

إلا إن مهرجان أثينا يتميز بألعاب المسرح..

حيث يعرض الممثلون فنونهم..

و مآسيهم..

لذا يحمل أهل قريتنا نبيذهم، وخبزهم..

وبضعة ثيران أشداء..

ويذهبون للتضحية لديونيسيوس..

طالبين منه الخير والبركة في محصولهم.

وحدي أتناول عشائي..

بضع كسرات خبز..

وقطرات من مخزون نبيذي القليل..

لماذا أذهب معهم؟

محصولي تلف كالعادة..

عدا النذر اليسير..

لا أملك ما أضحي به للآلهة..

لا أملك سوى ما نالني من سخطهم وغضبهم..

غير معلوم الأسباب..

فلأبق في بيتي معززًا..

هم ما كانوا ليرحبون بي بينهم..

وربما خشوا أن أفسد عليهم ـ بنحسي ـ

مهرجان الإله..

فلأبق في بيتي معززًا..

أتمل من ثقل خسارتي..

وأنشد السلوى في البيوت والطرقات الخالية.

فلأبق في بيتي معززًا..

أشعل قنديلي..

وأحاور ظلي المتراقص على الجدار..

فلأبق في بيتي معززًا..

ربما تواتيني الشجاعة..

وأنادي زيوس معاتبًا..

لماذا تفعل بي كل هذا وأنا من رعاياك؟

إن كنت تعاقبني..

صارحني بجريمتي..

وإن كان لا علم لك بمعاناتي..

فها أنا أبلغك..

وأشكوك..

فلأبق في بيتي معززًا..

ولا أخرج منه بعد انتصاف الليل..

ولا أبالي بأصوات ضربات سنابك الخيول القوية..

تقطع الطرقات..

مقتربة من داري..

* * *

يتهشم الباب..

يستحيل إلى شظايا متناثرة..

بضربة واحدة من القائمين الأماميين..

يقتحمون داري..

ثلاثة منهم..

لم أر في حياتي شيئًا كهذا..

فأصرخ مواريًا وجهي..

ينتصبون أمامي..

تفيض عنهم القوة..

ويثقلهم العنفوان..

يضيق بهم فراغ داري..

فيطأطئون هاماتهم العالية..

سمعت كثيرًا عن القنطور..

نصفه العلوي لإنسان..

والسفلي لجواد عظيم..

ولكنني ما تخيلت أن أرى منهم ثلاثة..

وفي صحن داري بالتحديد..

صرخ أحدهم:

" أأنت كرونوس؟"

أهز رأسي..

ينحني ويقبض على ساقي..

يغادرون الدار..

جارين جسدي المرتجف خلفهم..

يلقون بي في عربة مغلقة..

يجرها نمران أرقطان!

وينطلق الموكب مسرعًا..

لا قبل لي بإيقافه..

يقودني إلى مصير مجهول..

لا قبل لي بمواجهته..

فالقنطور..

والعربة التي تجرها النمور الرقطاء..

كلها تشير إلى شيء واحد فقط..

ديونيسيوس..

* * *

في البدء ظننته امرأة..

لدقة رسم الأصباغ الملونة..

لقسمات وجهه..

ثم أدركت أنني في حضرة الإله ذاته!

ما تبينت وجهة الموكب..

ربما نحن في أثينا..

حيث حل الإله لحضور مهرجانه..

وتلقي الهدايا والقرابين..

كان متكئًا على فراش بجلد النمور..

يرفل في الحرير..

أمامه دنان الخمر..

وأطباق أعناب بكل الألوان..

حوله حاشيته..

يمرحون..

يصخبون..

يتضاجعون..

تجمعهم خيمة فسيحة حريرية الجدران..

مرفوعة على أعمدة عدة..

يتسلقها اللبلاب..

"من هو؟"

سأل الإله مشيرًا إليّ..

"هو الفاني: كرونوس"

انطلقت ضحكة ماجنة من فم الإله..

لم تعبر أذني مثلها قط..

"كرونوس؟ اسمك كرونوس؟!"

أجيبه بتذلل:

"أجل يا مولاي"

"ولهذا أنت نحس"

يضحك من جديد..

وتضحك معه حاشيته..

"عندما تضرعوا إليّ في صلاتهم أن أخلصهم منك..

لم أفهم..

والآن فهمت سر نحسك يا كرونوس"

لسبب ما..

لم يقدر على مقاومة الضحك..

حتى انقطع نفسه..

وبالكاد سمعني أقول:

" من هم؟

من الذين طلبوا الخلاص مني؟"

"جيرانك يا كرونوس. أهل قريتك..

يخشون أن يطولهم شيء مما ترفل فيه من نحس..

يخشون أن تتسبب لهم في نصيب من غضب الآلهة"

غرب عني الخوف..

وسطعت شمس للغضب في سمائي..

قوية حارة..

غلت لها أحشائي..

"ولماذا تغضب مني الآلهة؟

ماذا فعلت؟"

زفر الإله مانعًا نفسه عن الضحك..

" أتعرف يا كرونوس..

لقد كنت على وشك إصدار الأمر بقتلك فعلاً..

فقد أغضبني ذلك القروي..

الذي لا يقيم لي الاحترام المناسب..

الذي لا يقدم لي القرابين..

الذي لم أتذوق نبيذه منذ أعوام طوال..

الذي يشتكي منه جيرانه..

عبادي المخلصون..

ولكن لما علمت باسمك..

أصابني شيء من الشفقة..

يا لك من مسكين يا كرونوس..

ضحية أب كافر..

أو أحمق..

أن أسماك: كرونوس"

أقول:

"ولكن كرونوس هو والد الآلهة"

يضحك قبل أن يقول:

"وعدوهم الأول أيضًا..

والد الآلهة؟!

الأب الذي يلتهم أولاده لا يستحق التكريم..

ولولا شجاعة ريا زوجته..

لما نجحت في إنقاذ أصغر أبنائها من بين يديه..

أبي.. زيوس..

الذي لولا جسارته ودهاؤه..

لما نجح في إخراج أشقائه من جوف أبيهم..

ولما قادهم للانتصار في الحرب العظيمة..

على الجبابرة..

الذين طالما عاثوا في الأرض فسادًا..

تحت إمرة كرونوس..

ولما احتل عرش الأوليمب..

ولما حكم الأرض..

إله عادل.. ورحيم"

أهذا هو ذنبي إذًا؟

أن أسماني والدي: كرونوس..

تيمنًا باسم ابن الأرض..

وأول من تربع على عرشها..

وما أدراني أن رواية ديونيسيوس صحيحة؟

إنها رواية زيوس..

وأشقائه من آلهة الأوليمب..

إنها رواية المنتصرين..

ربما كان كرونوس عادلاً..

ربما كان حكيمًا..

وربما طمع أبناؤه في عرشه..

ففعلوا ما فعلوا بتحريض من أمهم..

ما أدراني؟

أقول:

"يا أيها الإله الجميل..

وإن كان والدي كافرًا..

أو أحمق..

أو حتى كامل الجنون..

فما ذنبي أنا؟

لماذا أؤخذ بجريمته؟

فينالني الفقر..

ونقص الثمرات..

وكراهية الناس"

فيجيبني:

"إجابة سؤالك ليست عندي يا كرونوس..

هذا سؤال تسأله لمن يوزع الأقدار..

لزيوس نفسه"

أسأله متهدج الصوت:

"وكيف لي بهذا؟"

يجيب:

"ألم تفكر ولو مرة واحدة..

أن تزور معبده؟

أن تتضرع أمام تمثاله العظيم؟

ألم تفكر أبدًا في اللجوء إليه؟"

كان صوته يتعالى..

يتوتر..

يغضب..

يهدر..

فارتبك كل من بالخيمة..

وزأرت النمور..

"بالتأكيد سأفعل يا مولاي ديونيسيوس"

عاد باشتياق لضحكة ماجنة..

"لكن..

ولكن بعد أن تفي بدينك لي"

"أي دين يا مولاي؟"

يعدل الإله من جلسته..

يواجهني بعينين احمرتا غضبًا..

(أو ربما بفعل الثمالة!)

"كم عام مضى، وأنت لا تبذل لي القرابين..

لا تقدم لي الاحترام والتبجيل..

قلة نصيبك من الحياة..

سوء زرعك..

أمور لا تعنيني..

أنا الإله..

ونصيبي المعلوم فيك وفي رزقك..

يجب أن يصلني بلا تأخير"

تجري دموعي أمام غضبته..

"صدقني يا مولاي..

لا ذنب لي في شيء"

يرق صوته قليلاً..

"تقديرًا لهذا يا كرونوس..

أنا لن آمر بإعدامك..

ولن أمسخك حيوانًا..

أو جمادًا..

سيكون عقابك..

أن تمضي في الأسر..

خادمًا لي ولحاشيتي..

للمدة التي أرضاها"

أعقب حكمه بإشارة من يده..

فالتف حول رقبتي ذلك الطوق الحديدي..

مخترقًا العدم..

ومن لا شيء نبتت له سلسلة طويلة..

ثبتت نفسها في العامود الذي يتوسط الخيمة..

متيحة لي ـ على طولها ـ حرية الحركة..

في كامل قطر الخيمة الدائرية..

* * *

عثرت مصادفة على تلك الصفحات المشبوكة ببعضها بدبوس صغير. للمرة الألف أتصفحها مسرعًا. كانت مكتوبة بأناقة على الكومبيوتر. أحصيتها، فوجدها تضم خمس قصص، يذيل كل منها اسم الكاتب.. شاب يدعى مصطفى راتب. كالعادة، لم أتذكر اسمه إلا عندما قرأته في ذيل الصفحات، وتذكرت أنني التقيته في آخر زيارة لي لشركة الغزل الحكومية، حيث أعمل، عندما ذهبت للتقدم بطلب الحصول على إجازة بدون راتب لستة أشهر.

كنت أقطع سلم مبنى الإدارة هابطًا، عندما وجدت من ينادي باسمي، مصحوبًا بلقب التبجيل المعتاد "باشمهندس".. التفت، فوجدت ذلك الشاب يواجهني بوجه ملون بالخجل. هنأني لفوزي بالجائزة، فسعدت لذلك، بقدر اندهاشي. فما من أحد من زملائي في العمل بلغه شيء عن هذا الأمر.علل لي هذا بإنه متابع جيد لكل أخبار وفعاليات الأدب على شبكة الإنترنت، وقدم لي نفسه ككاتب شاب.

كنت أعرفه كموظف صغير، يعمل بعقد مؤقت في شؤون الموظفين في وظيفة ساعٍ، لا عمل له سوى نقل الأوراق والطلبات ما بين الإدارات، والأقسام المختلفة، وإدارة شؤون الموظفين. أعطاني عندها تلك الصفحات، وأخبرني إنها بضع قصص من تأليفه، يطمح في أن أبدي فيها رأيًا، وأن أساعده على نشرها في أية جريدة إن استطعت. أخذت منه الأوراق، وعدت بها إلى البيت، ويبدو أنها تاهت في فوضى حجرة نومي، فكنت أحيانًا أتعثر بها في بحثي عن شيء ما، فأعيدها إلى حيث وجدتها، متعللاً بأن الوقت غير مناسب لقراءتها بعد.

حتى الآن، وعندما ظننت أنني سأقرأها أخيرًا ـــ لعلي أجد في قراءتها ترويحًا لعقلي من الضغوط الضارة، التي تسببها الرواية الجديدة، لم يكتمل مشروع القراءة، أجهضه ذلك الاتصال الهاتفي من عبد الرحمن، يخبرني فيه إنه في طريقه إلى المستشفى، ليقل يوسف قطيط إلى منزله، ويسألني إن كنت أحب أن أصحبه.

بالطبع أحب.. يجب أن نقف وراء الرجل الذي طالما وقف وراءنا، خاصة وأنه لا أبناء له، وكثيرًا ما عاملنا كأبنائه، لا كأصدقائه.

ارتديت ملابسي على عجل، وانتظرت مرور عبد الرحمن بسيارته. فكرت أن أتسلى قليلاً بقراءة بضعة أسطر من قصص ذلك الشاب.. ولكنني لم أجد أثرًا لأوراقه! كالعادة تركتها من يدي، لتحط في مكان خفي وسط أكوام الكتب والأوراق.. أبحث عنها ببصري هنا وهناك.

ـ كاتب مثلك يجب أن تكون لديه حجرة مكتب، ومكتبة خاصة..

تقولها زوجتي، وهي تجمع الملابس القذرة من كل مكان في سلة الغسيل..

ـ ومن أين لنا بهذا؟ الشقة ليس بها سوى حجرتين.. واحدة لنا، والأخرى لوائل.. والصالة تضيق بحملها، ولا مكان بها لوضع أقدامنا.

تنظر إلي مغتاظة..

ـ أنا أتحدث عن شقة جديدة.

ساخرًا أسألها..

ـ كم برأيك تبقى من مبلغ الجائزة بعد كل ما أنفقناه؟

فتغادرني إلى الحمام، حيث تهدر الغسالة، معلنة اعتراضها عن طريق همهمات ساخطة، لا يصل إلى أذني منها سوى حروف متناثرة..

في نفسي أعترف بأن معها كل الحق. فأنا أيضًا ما عدت قانعًا بتلك الشقة الصغيرة. بت أختنق بالفوضى التي تملؤها.. كتبي تكدس حجرة النوم، وقطع الأثاث تزهق روح الصالة، وأنا ككاتب في حاجة إلى الفراغ.

أتأمل المكتب الخشبي العتيق، الذي يقبع في الصالة بلا أي استخدام. المنطق يقول إنه لا مكان له هنا، ويفترض أن أتخلص منه؛ ولكنني لا أستطيع. ربما هي العاطفة، أو التمسك بالموروثات.. وقد يكون الغباء!.. ولكنني أظل غير قادر على التخلص من هذه الحدبة، التي تثقل كاهل المكان، بدعوى أن هذا المكتب هو ميراث عن والدي.

صنع والدي هذا المكتب بيديه، وهذا يفسر بعض التشوهات في مظهره، مع كثير من عدم التناسق- حتى قبل أن أولد أنا- ليهديه لوالده المدرس الأزهري بمناسبة تقاعده، لكي يمارس عليه هواياته من قراءة وكتابة. ولكن جدي توفاه الله، قبل أن يحصل على هديته تلك، فاحتفظ والدي بالمكتب، برغم عدم استخدامه له. فقد كان والدي ــ كمساري الأتوبيس ــ لا علاقة له من قريب أو من بعيد بالقراءة، أو بأي من مظاهر الثقافة.. لذا أعطاني المكتب لما اشتريت هذه الشقة، مفضلاً إياي عن باقي إخوتي، وأنا أصغرهم، بسبب حبي للقراءة والكتابة. وبالطبع لم أستطع أن أرفض هذا الميراث، برغم كراهيتي لشكله. والحمد لله أن توفي أبي قبل أن أتزوج، فلم يشاهد مكتبه وهو مغطى بمفرش مصنوع يدويًا من "الكروشيه"، وفوقه حوض لأسماك الزينة، في محاولة من زوجتي لطمس معالمه القبيحة، وإكسابه مظهرًا عصريًا جميلاً.

أخرجني من تأملي صوت نفير سيارة عبد الرحمن يتعالى أسفل شرفتي، فنزلت مسرعًا، لأجده قد أخرج رأسه من نافذة السيارة، يتأمل باهتمام اللافتة الضخمة. ولما استقر جسدي فوق المقعد المجاور له، بادرني قائلاً:

ـــ ماذا تفعل هذه اللافتة هنا؟ ألهذه الدرجة يتسم قاطني شارعكم بالوطنية؟!

أمرته أن ينطلق، وأنا أنعته بنعوت بذيئة، يبدو أنها راقته، فتعالى صوت ضحكاته..

* * *

كان يوسف قطيط في حالة جيدة صحيًا، ومعنويًا وهو يخطو إلى داخل شقته، عدا شيء من إعاقة في حركة يده اليسرى من منطقة الرسغ، أكد الأطباء إنها ستنتهي مع المواظبة على تدريبات العلاج الطبيعي.

حاولنا أنا وعبد الرحمن جادين أن نرحل، ونتركه ليتمتع بالاسترخاء في منزله لأول مرة منذ أن هاجمه المرض، إلا إنه رفض، وأصر على أن نبقى معه لبعض الوقت.

اجتمعنا في حجرة الاستقبال، تحلقنا حول أكواب العصير الذي صنعته زوجته، واستغرقنا في حديث جاء معظمه عن أحوال البلد، وحكايات الفساد. وبرغم محاولات عبد الرحمن لمقاطعة الحديث بتعليقات ساخرة يلقي بها كل فترة، إلا أن يوسف قطيط لم يكف عن معاملته بصبر كطفل شقي غير كامل الوعي.

أتعجب لموقف هذا الرجل.. ألم يبلبل فكره ما آل إليه الحال بعبد الرحمن، الذي كان قديمًا من أكثر المحيطين به حماسة وغيرة على الوطن، فكان دائمًا ما يردد على أسماعنا تأكيده بأن عبد الرحمن سيكون رجلاً ذا شأن في العمل السياسي. أحاول أن أحوم حول هذه النقطة.. فأقول في صيغة اعتذار زائف:

ـ لا تلتفت إلى عبد الرحمن يا أستاذي.. فهو لا يقيم احترامًا سوى للامبالاة..

ـ لا تصدق عبد الرحمن.. هو فقط يخدع نفسه..

أتعجب لهذا الرأي.. لأول مرة أسمع تعليقًا من يوسف قطيط عما أصاب عبد الرحمن من تحولات، فأنجذب لكلامه، وأطلب منه الإيضاح..

ـ عبد الرحمن سيبقى هو عبد الرحمن.. وكل ما يدعيه من لامبالاة، ما هو إلا قناع زائف، يحاول أن يقنع به نفسه، قبل أن يقنع الآخرين، عساه يجد راحة نفسية، لم يجدها طوال سنوات من الانشغال بهموم الوطن.

ـ كما ترى.. أنت أستاذنا، وعيب أن نعارضك.

قالها عبد الرحمن بسخرية، لم تخف ما وراءها من حنق. إلا أن يوسف قطيط تابع بمنتهى الجد:

ـ لو كنت أستاذك بالفعل، لالتزمت بما علمتك إياه. ألم أعلمك إنه ليس من العيب أن تعارض أستاذك في رأيه؟

فتدخلت في الحوار مبتسمًا:

ـ عبد الرحمن يمزح يا أستاذي..

ثم حاولت أن أدير دفة الحوار إلى مسار آخر، مبتعدًا بكلمات يوسف قطيط عن طريق عبد الرحمن، فأخبرتهما بأنني سأكون غدًا ضيفًا على برنامج في قناة حكومية، منشغلة بأمور الثقافة، لأتحدث

عن روايتي الأولى، والجائزة التي حصلت عليهـا، فتلقيـت منـهما التهاني، وشيء من سخرية عبد الرحمن،غير أن الجلسة امتدت بنا حتى عادت عجلة الحوار من جديد لما حدث مع يوسف قطيط من تعنت.

ـ أنا لا أفهم؟ ماذا يضير مم إن سافرت إلى الخارج!.. أو أي من أساتذة الجامعة!.. نحن فقط نطالب بكرامة للجامعة، نطالب بحريـة العلم، حرية العمل السياسي للطلبة، نحن لسنا خونة أو عملاء، حتى يخشون السماح لنا بالسفر إلى الخارج.. أي قانون هذا؟!

هنا قال عبد الرحمن، بعد أن اكتفى بالصمت لفترة طويلة جدًا..

ـ قانون؟! أنت تبحث عن القانون؟! دعني أنـا أخـبرك عـن القانون..

حاولت أن أفكر في أي شيء أقوله، يحول دونه والاسترسال، إلا إنه كان أسرع مني، فتابع بنبرة غضب:

ـ إنه القانون الذي أصدر الحكم لمـصلحة محمـد عطـوة في انتخابات البرلمان بوقف الانتخابات، بعد أن تظلم من إلقاء القـبض على عدد كبير من مندوبيه، ولكن الحكم لم يحترم، ولم ينفذ إلا بعـد أن نجح محمد، ودخل في جولة إعادة مع مرشح الحـزب الـوطني. عندها تذكروا حكم القانون، وأوقفوا انتخابات الإعادة، خوفًا مـن نجاح مرشح الإخوان، ولم تجر حتى الآن.

هو نفس القانون، الذي يجعلهم يلقون به في السجن كـل عـام لبضعة أسابيع، لمجرد أنه ينتمي إلى فكر، وفصيل معارض. هذا هـو

القانون الذي تسأل عنه. هذه هي اللعبة التي لم تفهمها يا أستاذي بعد كل هذا الوقت. على الأقل محمد عطوة فهمها، ووجد لنفسه فريقًا يلعب باسمه، وهدفًا يصل إليه.. السلطة. أما أنت فماذا تبغي؟ وماذا كسبت سوى هذا؟

قال كلمته الأخيرة، مشيرًا إلى يد يوسف قطيط اليسرى المستقرة باسترخاء فوق ركبته.

لم يحدث من قبل أن تطاول أحدنا، أو تحدث بهذه اللهجة مع أستاذنا.. لذا كان يجب أن يتبع عبد الرحمن ثورته بالمغادرة. لم يحاول أحدنا إيقافه، أو تهدئته، فلم نكن تخلصنا بعد من ذهولنا. ولم ينطق أحدنا إلا بعد أن تبخر تمامًا أي أثر لدوي الانغلاق العنيف لباب الشقة وراء المغادر.

ـــ أنا لست غاضبًا منه.

قالها يوسف قطيط حتى قبل أن أسأله..

ـــ على العكس.. فقد أثبت لي صدق رؤيتي؛ إنه ما زال على عهده. فقط هو يحاول، بجهد بالغ، أن يئد روحه الثائرة.

ولكن حتى الأستاذ لم يكن متمسكًا، حقيقة، بدرجة التسامح مع الذات التي يبديها، لذا ما لبث أن سألني:

ـــ هل تظنني أحمق؟ هل تعتقد بدورك أن لا جدوى مما أفعل؟ هل ترى إنه من الأفضل ألا نبالي، وليكن ما يكون؟

بحثت عن رد مناسب، يخفي ما بأعماقي أكثر مما يظهر، ولكن الكلام اندفع عبر فمي بغير ترتيب، فقلت آخر شيء كنت أتمنى قوله..

ــ أبي شارك في إضراب عمال النقل في مارس 1954..

نظر إليّ بشيء من الذهول، قد يكون سببه إنني لم أحدثه من قبل بهذا الأمر طوال علاقة امتدت لأكثر من عشرين عامًا. وقد يكون بسبب المسافة الكبيرة الفاصلة بين سؤاله، وإجابتي..!

ــ لقد كان من العمال الذين ساروا وراء قادة هيئة التحرير، فأضربوا، وتظاهروا تضامنًا مع مجلس قيادة الثورة. أبي من الذين هتفوا بسقوط الديموقراطية، وسقوط البرلمان. لماذا؟ لماذا يتظاهر عمال بسطاء، مواطنون عاديون تمامًا، مطالبين بالدكتاتورية، والحكم الشمولي؟

ــ ماذا تريد أن تقول؟

أطرق للحظات مفكرًا..

ــ ربما هذه هي اللعبة يا أستاذي.. اللعبة التي يتحدث عنها عبد الرحمن.. السلطة تفعل أي شيء.. تزيف حتى إرادة الناس.. بل وتزيف الناس أنفسهم.

ــ معنى ذلك إن أي محاولة رفض من جانبنا مصيرها الفشل..

فقط أغمغم:

ــ ربما..

يقول بعد صمت:

ــ إذًا لا فارق بين أن نصمت مثلك، أو نسعى للسلطة بــدورنا مثل محمد، أو نهتف بسقوط الديموقراطية كما فعل والدك.. فالنتيجة واحدة.. لا شيء يهزم السلطة.

شعرت بنبرة التأنيب في صوته، فقلت:

ــ أنا حتى لا أقر واقعًا يا أستاذي.. أنا فقط أفكر بصوتٍ عالٍ؛ فلا تسئ فهمي.

ــ لا عليك.. ربما أنا من بحاجة لإعادة حساباته.

عندها شعرت بأن الجلسة لن تقدم الجديد، ولن تزيد الأجــواء المتعكرة صفوًا، فاستأذنته للرحيل. قام لتوديعي، وقبل أن أغــادره، قال:

ــ لا تقس على والدك رحمه الله، فأنت تعرف أساليبهم الملتوية.

فابتسمت قائلاً:

ــ أعرف.. ولكن العجيب، أن والدي بقي لآخر لحظة في عمره، مقتنعًا بما فعله وزملاؤه وقتها، بل ومتفاخرًا به كذلك.

* * *

فجأة، وجدتني لا أطيق البقاء في البيت أكثر.. كرهت حجــرة نومي بفوضاها.. والصالة التي يخنقها مكتب أبي كــورم خبيــث..

ودروس اللغة الإنجليزية التي تقود بها زوجتي وائل للتفوق في مباريات مصارعة الأمهات، بينها وبين جميع نساء العائلة، وزوجات الأصدقاء.

لم أشعر بأدنى درجات الرضا عن لقائي التليفزيوني، الذي أذيع اليوم على الهواء، مما ضاعف إحساسي بالضيق. فحملت أوراقي وأقلامي، واتجهت إلى المقهى.

أنا لم أكن يومًا من الكتاب الذين لا تشتعل قريحتهم إلا وسط الزحام، وعبق تلاحم الناس. على العكس.. قريحتي مدربة على الهدوء، والعزلة. ولكن احتمال الزحام، والضجيج على المقهى بدا لي الآن أفضل من احتمال ضغط الضيق، وملل الرتابة في بيتي.

ولم تأت النتائج بالسوء الذي توقعته. كتبت.. قطعت شوطًا لا بأس به.. عندها تألقت فجأة شاشة هاتفي، بآخر اسم توقعته، وأكثر اسم تمنيته في هذه اللحظة.. محمد عطوة.

* * *

3

أنا كرونوس..

آدمي سابق.

مازلت فانيًا..

مازالت الدماء الحمراء..

تسيل من جروحي..

مازلت أتألم..

أجوع..

أعطش..

ما زلت أحيا..

ولكن ما عدت آدميًا..

إنها تلك الجذوة التي تشتعل بأعماقنا..

فتخبرنا يقينًا عن الفارق بيننا وبين سائر الكائنات..

انطفأت الجذوة..

وفقدت ما يربطني بعالم البشر..

قتلت آدميتي..

ما بين مهانة الأسر..

وذل العبودية..

وحتى العبث برجولتي..

على يد ندماء الإله..

وما أكثر ما يلونهم من ألوان الانحراف..

والشذوذ.

أنا كرونوس..

جثة متحركة..

مات إحساسي..

حتى الخوف..

غادرني منذ زمن..

فقط نقطة واحدة بداخلي مازالت تضيء..

لا أدري إن كانت نقطة بشرية..

أم حيوانية..

ولكن ما أعرفه يقينًا..

إنها من غرس الأرباب أنفسهم..

نقطة تدعى:

السخط..

* * *

بالتأكيد مر وقت طويل..

أنا لم أخرج من الخيمة قط..

ولم أحرر من مربطي ولو لثانية..

لذا لا علم لي بالزمن..

أو بالمكان..

إلا حدسًا..

كانت الخيمة تنتقل من مكان إلى مكان..

أشعر بهذا من تغير الأجواء..

فاليوم قطرات المطر تضرب سطح الخيمة..

بصوت أسمعه كلما خفت ضجيج قاطنيها..

وغدًا.. أشعر ببرد شديد..

وأرى تلاعب الرياح القوية بالجدران الحريرية..

ويبدو لي عبرها خيال كرات الثلج..

تهوي متمهلة من علٍ..

وبعد غدٍ أغرق في عرقي..

أستشعر اللهيب..

وكأننا في قلب الجحيم ذاته..

فأخمن من هذا التعاقب السريع للأجواء..

أن ما يتغير هو مكاننا..

أما ما داخل الخيمة..

فحال ثابت لا يعرف التغيير..

يتداخل الزمن..

يختلط الليل بالنهار..

ولا يكف اللهو والعبث..

لا أكف عن الدوران بكؤوس الا تمر..

ولا يكف الجمع عن إفراغها..

ففقدت حساب الزمن..

فقط نحول جسدي..

وطول لحيتي..

هما ما ينبئاني بمرور شهور..

وربما أعوام.

حتى أتت اللحظة التي مللت انتظارها..

أشار إلي الإله أن أتقدم منه..

وأشار إلى أقرب مجالسيه..

"من هذا؟

لقد نسيت جريمته"

فيهمس إليه الجليس بكلمات..

يشرق لها وجهه بنور المعرفة..

ويقول:

"اسمع يا كرونوس..."

يغلبه الضحك من جديد..

"اسمك كرونوس؟!

يالها من حماقة..

اسمع يا كرونوس..

هل تشعر إنك قد وفيت دينك؟"

"مولاي العظيم ديونيسيوس..

هو من يحكم في هذا"

فيستعيد جديته..

"حسنًا أيها الفاني كرونوس..

لقد أعتقتك..

ولكن..

لا عيش لك في أرض المزارعين..

إلا أن يرضى عنك زيوس..

وينعم عليك بغفرانه..

وسلامه.."

أحبس دموعي..

دموع الفارح بالنجاة..

أو دموع من أنهك الذل متنه..

ولكنه مجبر على حمل المزيد..

"الحمد لك أيها الإله..

يا من كان زيوس الجبار له...

أبًا، وأمًا..

وضع بذرتك..

وحملك في فخذه ليتم اكتمالك..

بعد أن كدت تقضي نحبك..

جنينًا في رحم أمك..

يا حفيد قدموس..

ملك طيبة العظيم..

وقاهر التنين..

الحمد لك على حياتي..

برحمتك لم ترضَ لي القتل..

وبحكمتك أرشدتني إلى الطريق..

فلن أغادر هذه الخيمة..

إلا حاجًا إلى معبد زيوس بأوليمبيا..

لأرجو الصفح أمام تمثاله الشامخ.."

يتأثر الإله بكلماتي..

فيملأه الزهو..

ويشرق وجهه ـ المكسو بملاحة النساء ـ

بعلامات الفخر..

"اذهب أيها الفاني..

اذهب من هذا الباب..

وستجد نفسك على تخوم..

أوليمبيا.."

* * *

امتدت المدينة الكبيرة أمامي..

أشرف عليها من فوق الطريق الصاعد إلى جبل عظيم..

جبل سأعرف بعد..

أن اسمه : جبل كرونوس..

ليس تيمنًا باسمي..

ولكن يبدو إنه مثلي..

تذكران وحيدان باقيان..

على أثر الإله الأكبر السابق.

أسلك الطريق هابطًا..

تبتلعني شوارع المدينة الكبيرة..

التي تبعد مسيرة أيام وأيام عن قريتي..

أسأل أول من أقابله عن تاريخ اليوم..

فأحصي من الزمن خمسة أعوام..

مروا عليّ في أسر ديونيسيوس..

أبتلع دهشتي..

وأكمل طريقي..

حتى أقتحم باب المعبد الكبير..

معبد زيوس..

أدخل الممر الأعظم..

أمر بجوار الأعمدة الضخمة..

وهناك أمامي..

يقبع رب الآلهة..

يتلألأ في حرملته الذهبية..

وجسده مشدود بشموخ..

فوق عرشه العاجي..

يكاد يقوم عنه ويتقدم مني خطوات..

من فرط ما أبدع في صنعته النحات..

أتقدم منه أكثر..

حتى يحتويني بهاؤه..

وتغمرني نظرة لا معنى لها..

من عينين حجريتين..

ميتتين..

"يا أيها العظيم زيوس..

أنا..

أنا.."

أتوقف..

أتأمل ذقنه الطويلة الخشنة..

تجاعيد وجهه العجوز..

الصولجان الذي يقبض عليه بقوة..

وسطوة..

وكبرياء..

والغضب المنحوت في عينيه..

النسر القابع بجوار ساقيه..

متوعدًا..

فأرى للجبروت هالة..

تشع عنه وتغمرني..

أهكذا علينا ـ نحن الفانين ـ

أن نراه؟!

تتغير لهجتي..

"أأنت من حملتني إلى هذا العذاب؟

أأنت من تظن بنفسك القدرة على المنح والأخذ؟

أأنت من نصبت نفسك ملكًا على الأرزاق...

فتهب لمن تشاء الخير...

وتهب لمن تشاء البؤس والشقاء؟

من أنت؟

بطل الآلهة؟

أم قاتل أبيه؟

جبار في علياتك؟

أم محض وغد..

لا هم له سوى مطاردة النساء؟

أتستطيع أن تجيبني؟

كلا..

سأخبرك شيئًا..

أنا لا أريدك..

ولا أريد خيرك..

سأجوع..

سأظمأ..

سأسكن الكهوف..

سأصنع أرديتي من الشوك..

وأستظل بنزف البراكين..

سأهيم في أودية الوحوش..

وأنام في أعشاش النسور..

ولن أتذلل لك..

أو أرضيك بضراعتي..

أيها التمثال الجميل.."

* * *

للوهلة الأولى، تقلصت أحشائي تحت ضغط شيء من التوتر، استشعرته مغموسًا في رهبة التجارب الأولى.. تقلبت مرتين أو ثلاثا في مجلسي على المقعد الوثير، حتى ناداني المصور — منتزعًا وجهه من خلف كاميرته — أن أسكن على وضع معين، حتى يضبط هو وباقي المصورين كاميراتهم. أطلق زفرة، أحاول أن أقول أي شيء، لأتغلب على إحساس انتابني بأن صوتي سينحبس، ويأبى مغادرة حلقي، بمجرد أن تدور الكاميرات.

لم يخرجني من هذه الحالة، سوى ذلك الشاب الذي اقتحم الإستوديو متعجلاً، واحتل المقعد المواجه لي. سدد لي ابتسامة ترحيب، وانهمك في تثبيت الميكروفون الصغير بقميصه في نقطة قريبة من فمه، ثم أجرى اختبارًا لوضوح الصوت، جاءته نتيجته عن طريق صوت المخرج الذي يصله عبر السماعة الصغيرة المثبتة في أذنه، فبدا على وجهه الارتياح، والتفت إليّ منتبهًا.

من ورقة كبيرة في يده، قرأ عليّ اسمي، ليتأكد من صحته. ثم بدأ يراجع معي شيئًا من عناصر الحوار، قبل أن تحين لحظة بدء البث. سألني عن الجائزة.. مزح معي بشأن قيمتها المالية الكبيرة.. ثم سألني عن الرواية نفسها بأن قال:

— منذ متى وأنت تكتب أدب الرعب؟

اندهشت..

— أنا لم أكتب في حياتي كلمة واحدة تنتمي إلى أدب الرعب!

فأصابه شيء من الارتباك، وسمعته يغمغم وهو يبحث عن شيء ما في الورقة..

ــ ولكنهم قالوا لي إنها رواية رعب..

تهلل وجهه وقد وجد ضالته.. من الورقة قرأ عليّ اسم روايتي..

ــ (ربيع المذؤوبين).. أليس هذا اسم روايتك؟

جاريته..

ــ بلى.

لم ينطق، وإنما أومأ لي بمعنى (أرأيت؟).. وكأنه قرر أن يكذبني، ويصدق معد البرنامج الأحمق، الذي دس في يده هذه الورقة!

ــ هي إذًا رواية رعب، لمجرد أن اسمها (ربيع المذؤوبين)؟

أسأله، فيزداد ارتباكًا..

ــ هذا هو المكتوب أمامي..

فأسخر قائلاً:

ــ هذا يعني أن رواية فتحي غانم (الأفيال)، تنتمي إلى عالم الحيوان؟!

يطرق مداريًا ارتباكه..

ــ هي إذًا ليست برواية رعب؟

أهز رأسي بالنفي، في اللحظة التي يتصاعد فيها من سماعة أذنه صوت المخرج يصرخ بالعد التنازلي إيذانًا ببدء البث..

مسرعًا يسألني:

ـ فيم أسالك إذًا؟

يصدمني سؤاله، فأجيب:

ـ اسألني عن صحتي..

* * *

بالتأكيد راق هذا الموقف كثيرًا لمحمد عطوة، حتى إنه بدا وقد فقد السيطرة على ضحكاته المتناثرة بصوت مجلجل في كل مكان، حيث جلسنا بنادي المهندسين، فصرنا موضع أنظار وهمسات الجالسين على مقربة منا. خاصة وأغلبهم لا يجهلون محمد عطوة، المرشح الدائم في انتخابات نقابة المهندسين، والتي لم يعرف منها سوى طعم الفشل، حتى قرر أن يهجرها إلى الانتخابات الأكبر، والأشرس.

عندما هاتفني محمد قاطعًا عليّ انهماكي في الكتابة، اقترحت عليه أن يحضر إلى حيث أجلس في المقهى المجاور لبيتي. إلا أنه اقترح أن ألاقيه في كافيتريا نادي المهندسين، فوافقت آبيًا على نفسي أن أضيع فرصة اللقاء الذي اشتقت إليه كثيرًا.

الغريب إنني هنا أمامه، أتساءل عن سبب لهفتي عليه بهذا الشكل طوال فترة اعتقاله الأخيرة. ما الأثر الذي تركه غيابه على حياتي؟ وما الجديد الذي سيطرق أبوابي في وجوده؟ لا شيء.. لماذا افتقدته؟ هل

لمرض يوسف قطيط علاقة بهذا؟ هل للامبالاة عبد الرحمن دخل؟ هل أفتقد لحماسي، واتقادي، فأبحث عن محمد عطوة الشعلة التي لا تنطفئ، علني استمد منه قبسًا؟

ـــ ألم تعلم بما أصاب يوسف قطيط؟

ـــ علمت بالفعل..

ـــ ألم تزره؟

ـــ لقد خرجت من المعتقل بالأمس فقط.

ثم زين التالي من كلماته بابتسامة..

ـــ ثم إنني آخر شخص، على هذا الكوكب، يفترض به أن يذهب لزيارة يوسف قطيط في منزله.

أندهش لقوله..

ـــ ولماذا؟ ألست تلميذه، وصديقه؟

تتسع ابتسامته..

ـــ زيارتي ليوسف قطيط تعني أن ينتقل الرجل من القائمة السوداء، إلى القائمة الأكثر سوادًا. أنسيت أنه من المغضوب عليهم؟! ولو ظهرت له علاقة مقربة بناشط (إخواني) مثلي، فهذا لا يعني سوى مضاعفة متاعبه.

ـــ أيعني هذا أن تقطع علاقتك به؟

بسرعة نفى..

ــ كلا بالطبع؛ ولكن حسبنا لقاءات متباعدة هنا، أو في مــبنى النقابة.

صارحته برأيي..

ــ أنا أشعر أن شلتنا لن تعود كما كانت.

حكيت له عن المشادة التي وقعت بين يوســف قطــيط وعبــد الرحمن، فتشكلت ملامحه بإمارات التردد لوهلة، قبل أن يقول:

ــ دعني أصدقك القول.. أنا ما عدت أجد بنفسي حماسة لعلاقتي بعبد الرحمن.

ــ لماذا تقول شيئًا كهذا؟

ــ عبد الرحمن ما عاد هو نفسه، وأنا أشعر إنه ما عاد يتقــبلني مؤخرًا. أعلم إنه يكره الإخوان المسلمين، ويعتقد إنني ما انــضممت إليهم إلا سعيًا وراء مصلحة شخصية.

بجرأة طارئة قاطعته:

ــ وهل تراه محقًا؟

لونت الصدمة وجهه..

ــ عارٌ عليك أن تسألني هذا السؤال، وأنا أظنــك أكثــر مــن يفهمني. نحن أصدقاء منذ أول عام دراسي لنا بالجامعــة.. صــداقتنا استعصت على كافة تقلبات الزمان، لتستمر لأكثر من عشرين عامًا. والآن تشكك في نزاهتي! أم تعتقد إنني اكتسبت قيم هذا الزمن؟

أدركت أن الاندفاع لن يعالجه سوى المزيد من الاندفاع، فلم أراقب الكلمات المندفعة عبر شفتي..

ـ عبد الرحمن رأيه أن الناس ثلاثة أصناف: حمقى، ووصوليين، وسعداء.

ـ دعني أنا أكمل لك، يوسف قطيط: أحمق.. محمد عطوة: وصولي.. عبد الرحمن مكاوي: سعيد.. أليس هكذا يصنفنا عبد الرحمن؟

هززت رأسي أن نعم، فتصاعدت حدة نبراته:

ـ وماذا عنك؟ من أي صنف أنت؟

لم أجد إجابة ترضيني لهذا السؤال، فحدثته عن روايتي الجديدة.. حكيت له عن كرونوس، الذي قرر أن يتحدى أربابه ليغير قدره التعيس. فحدثني بدوره عن ضرورة الالتزام بحدود لحرية الإبداع، ففهمت أن عقله لم يستوعب الحكي عن آلهة قديمة، وبشر يصنعون أقدارهم بأيديهم..

ـ أنت لم تصل إلى أعماق حكايتي..

أشاح بيده قائلاً:

ـ أنت تعرف إنني لم أهوَ الأدب يومًا.

فأتساءل من جديد.. هل أخطأت عندما ظننت أن لديك إجابة لتساؤلاتي؟ الآن أنت أمامي، فأجد أن تساؤلاتي مازالت تتوالد،

وعلامات الاستفهام تكبر، وتكبر، حتى لتبلغ الحدود ما بين الحيرة واليقين، تكاد تعبرها، ليستحيل شكي إيمانًا..

لماذا فترات الاعتقال؟ لماذا القتال على مقعد نقابي؟ لماذا هتك الحناجر خطابة في ميكروفونات الفضائيات، عن تزوير انتخابات البرلمان؟

كلمات عبد الرحمن تصدح في أذني:

ـ ألا ترى مناخنا السياسي الفاسد؟ كذب، وتزوير، وقوة بوليسية تحمي القرار بغير رحمة. أترى شخصًا يلقي بنفسه في خضم هذه اللعبة العفنة، يبغي شيئًا سوى قطعة من الكعكة؟ أتظن أن شخصًا يتحمل هذا الهوان، والعذاب، ووجع الرؤوس، من أجل مصر، والشعب، والحرية؟!! أي وهم هذا؟!!

أيكما على حق؟

أمن أجل الحرية، والعدل تعمل كما تدعي؟ أم من أجل السلطة والمال، كما يراك عبد الرحمن؟

أم تراه أبي هو من كان على الحق، ففهم اللعبة مبكرًا؟

ـ إلى أين ذهبت؟

يعيدني محمد من شرودي، إلى التأمل في انتفاخ عينيه من أثر قلة النوم في ليالي المعتقل، فأخبره بفكرة عابرة:

ـ ليس من السهل أن تقتل إلهًا..

4

فكرت أن أبقى في أوليمبيا..

مدينة كبيرة كتلك..

لن تخلو من عمل أرتزق منه..

ولكنني..

وفي نقطة بعيدة..

في أعماق لا أدري عنها شيئًا..

كان لي قلب وحش..

يحترق بنداء خفي..

عقل تتفرع منه الثعابين..

كرأس ميدوسا..

تسرح في حنايا جسدي النحيل..

تخبرني أن حياتي ليست هنا..

ليس مصيري أن أحمل أجولة الغلال.

أو أشكل أحجار البناء منازلاً..

أو ألقي بشباك صيد..

في نـهر ألفيوس..

وأنتظر.

مصيري في السير خلف هذا النداء..

في إطفاء جذوة متقدة لشيء لا أدريه..

في فكرة خافتة الصوت..

تزدهر بداخلي..

كنبتة خرجت من بذرة الجنون.

أنام أيامًا في طرقات المدينة..

لا أتسول مالاً..

أو طعامًا..

ولكن بؤس مظهري يفعل.

آكل فيقوى جسدي..

تشتد عزيمتي..

ويزداد النداء صخبًا..

فأتخذ قراري..

وأنطلق مهاجرًا..

إلى لا مكان..

* * *

بعد انقضاء ثلاثة أقمار..

مسافرًا على طريق أثينا..

أسقط في يد عصابة لصوص..

أفرح لذلك..

فقد نفد زادي..

من هبات كرماء أوليمديا..

وجف حلقي..

أو كاد..

من قلة الماء..

ولكنني..

ثابرت على اتباع ندائي..

فآمنت بأن نجدتي في الطريق..

وربما تكون نجدتي..

على أيدي هؤلاء الغلاظ..

الأجلاف.

فتشوني فلم يجدوا معي ما يسلب..

تلاوموا فيما بينهم..

"أي أحمق يفكر في سرقة هذا الرث...

المسافر على قدميه؟!"

أعاد أحدهم إليّ الأمل..

عندما اقترح أن يأخذوني..

ليبيعوني في أقرب سوق للعبيد..

وافق رفاقه..

فحُملت مكبلاً..

أمام أحدهم..

على فرس أدهم..

بعد يومين..

تشاوروا من جديد..

"هذا النحيل..

كم سنربح من ورائه؟"

"ربما لو أطلقناه لخدمتنا..

لكان لنا خيرًا"

وافقوا..

وسعدت لرأيهم..

فالآن صار بإمكاني أن أسافر معهم..

إلى أن يشتد ندائي..

ويتشكل مصيرًا واضحًا.

وكان الفضل لجلاكوس..

أن أبقى معهم..

جمع بيننا فرسه الأدهم..

تعارفنا..

وتحاببنا..

فأقنعته بقدرتي على خدمتهم..

دونما مطلب..

سوى مطعمي، ومشربي..

والآن..

أجوب معهم أرضًا لم أطأها من قبل..

يغيرون على القرى الصغيرة..

وقوافل التجارة..

يغتصبون متاع المسافرين..

ويبيعون ما اغتنموا..

في أقرب مدينة..

ولكن بعد أن يحمل ربهم حصته..

أخبرني جلاكوس..

أن هرميس ليس فقط رب اللصوص..

وإنما هو مبعوث زيوس..

وخادمه الخاص..

يحمل رسائله وأوامره..

من جبل الأوليمب العظيم..

ويطير بها إلى بقاع الأرض..

تحمله أربعة أجنحة..

اثنان ينبتان من جانبي خوذته..

وواحد في كل فردة من نعليه.

هيرميس ربهم..

يملك جسدًا فتيًا..

وملامحًا حكيمة..

برغم تباسطه معهم..

وتواضعه أمامهم..

إلا أن عينيه تحملان قسوة..

تهدد بالويل من يغضبه..

أو يخالف له أمرًا.

يقيمون له الصلاة..

بعد كل سرقة..

فيهبط عليهم من السماء..

يباركهم..

ويرحل حاملاً نصيبه..

"إلى أين يأخذ الغنائم؟"

أسأل..

فيجيبني جلاكوس..

"وما شأننا نحن؟..

فغنائمنا ليست بالثمن الكبير..

لبركة الإله"

أطارد شكوكي..

يحملني سوء ظني..

وأعود منتصرًا.. بفكرة..

فأقول..

"أتظنه يحمل لزيوس نصيبًا؟"

"وما الضير في هذا إن فعل..

أليس زيوس بكبير الآلهة؟

من أين تراه يتربح..

لينفق على ترفه القدس..

كأعظم الأرباب؟

أم أنك تستكثر على الإله..

أن يتنعم؟"

يضحك جلاكوس..

فلا تبطئ عفويته..

وسذاجته..

من سرعة جريان أفكاري..

* * *

أشقى كثيرًا في خدمة اللصوص..

ولكن في المقابل..

أتعلم الكثير..

في رفقة جلاكوس..
كان يعرف الكثير عن الآلهة..
وكنت أجدني..
بدافع من ندائي الخفي..
متعطشًا لكل أخبار الآلهة..
حكى لي عن صراعاتهم..
حروبهم..
خياناتهم لبعضهم بعضا..
حكى لي عن آرس..
إله القتل والدمار..
والحروب الوحشية..
وكيف إنه رأى الإسبرطيين..
يتقربون إليه..
بذبح جرو عند انتصاف الليل..
حكى لي عمن تحدوا الآلهة..
عمن نالهم سخط زيوس..
وكيف كان عقابهم..
وحكى لي عن قصر زيوس..
والوعائين الراقدين أمام بابه..
الأول به عطايا الخير..

والثاني به عطايا الشر..

ينثر زيوس على من يشاء..

من الوعاء الذي يريد..

فأسأل حالمًا..

"ماذا لو سرق أحدهم وعاء الخير..

ونثره على من يشاء..

أو نثره على البشرية كلها..

أو حتى استحم به وحده؟!"

فيضحك الطبيب جلاكوس..

"أتظن بلوغ قصر زيوس بالأمر الهين؟!"

"ولم لا؟"

"أن تصعد جبل الأوليمب..

حتى القمة التي لم يبلغها إنسان..

بل حتى.. لم يرها إنسان..

بفعل الغيمة التي تغطيها أبدا..

وتحجبها عن أنظار الفانيين..

أن تمر عبر ربات الفصول..

اللاتي يقمن على حراسة الغيمة..

ولا يرفعنها إلا لمرور أحد الآلهة..

من القمة أو إليها..

أن تصل بعدها إلى قصر زيوس..

دون أن يشعر بك الإله الأكبر..

فيلقي عليك صاعقة..

أو يمزقك ابنه الأقوى..

هرقل..

أن تأخذ الوعاء..

قاطعًا به رحلة العودة.

أترى في الكون..

ما هو أصعب من هذا؟"

أفكر كثيرًا بالأمر..

أيعقل أن تكون هذه هي...

ترجمة ندائي الغامض؟

أيكون هذا هو مصيري الخفي؟

أن أسرق وعاء الخير..

وأمتع به الفانيين..

دونما تمييز؟

أأكون مثل العملاق بروميثيوس..

الذي سرق النار من الآلهة..

ومنحها للبشر؟

ولكن هل لي أنا الفاني..

باحتمال عقاب..

كعقاب برومثيوس؟

أسأل جلاكوس عارضًا..

"ما الذي ينقص فان..

ليسرق وعاء الخيرات؟"

حالم النظرات.. يجيب..

"ينقصه قوة مهولة..

قوة إله..

قوة تعادل قوة هرقل ذاته..

أو تفوقها..

ينقصه درع أسطوري..

لا يتأثر بصواعق زيوس..

وسلاح خاص..

سيف أو رمح..

يقدر على اختراق دروع الآلهة..

والإمساك بأرواحهم الخالدة..

سلاح يقتل إلها.."

"وكيف لفان..

أن يتحصل على هذه القوة..

وهذا السلاح؟"

"أما القوة..

فقد يمنحها إليه إله..

وأما السلاح..

فمن غيره يصنعه..؟

هيفيستيوس..

الحداد الأعظم..

إله النار..

هو من صنع أسلحة الآلهة..

وعتاد الأبطال..

وحتى أجنحة هرميس..

وهو الوحيد القادر على صنع..

هذا السلاح..

وذاك الدرع"

"وكيف لي بلقائه"

يبتسم جلاكوس..

كاشفًا عن توتره..

وكأنما بدأ يستشعر..

شيئًا من الجد في أسئلتي..

شيئا أكبر من مجرد فضول..

أو نهم لمعرفة..

أو حديث شيق لقتل الوقت..

"فيم تفكر يا كرونوس؟"

أداري ارتباكي بابتسامة..

"فقط أجبني..

وسأخبرك بعدها.."

"هيفستيوس يعيش في ورشته..

في جبل نار..

على جزيرة ليمنوس.

والآن أخبرني..

فيم تفكر؟"

فأجيبه بعد صمت..

"سأخبرك..

فقط بعدما أحدد مصيري"

* * *

أعود أعوامًا للوراء، وأسأل نفسي.. كيف تختفي عن أعيننا المصائر؟ كيف لا نمتلك ولو بصيص ضوء، نلقيه على التالي من الأيام في مخيلتنا، فنعرف ما قد يكون؟. كل ما نحكيه عن مستقبلنا، وما نحمله من تصورات، حتى ليوم الغد، ما هي إلا محض أحلام، تسبح بعيدًا عن شطآن الواقع..

منذ أول يوم لي بالجامعة، أحمل وصايا والدي، أن أبحث عن أقرب حائط، وألتصق به محتميًا. ليس لي في الدنيا، سوى أسرتي، ودراستي.. فكيف لي بالبصيرة النافذة، لأتخيل أنني قد أضرب بهذا الحديث عرض الحائط، ولم ينقضِ على وجودي بالجامعة عام، وأحمل علـــى رأســـي وقلبي قضايا، ما كنت أعرف عنها سوى القشور. فيخط نزف قلمي الحكايات عن أبناء معسكرات اللاجئين الفلـــسطينيين، فتحتفـــي بي الأوساط الطلابية المنشغلة بالأدب، وأعرف منصات الجوائز في قصور الثقافة، ونوادي القصة، وأكتب في المجلات الطلابية، وأخط كلمات الحماسة، ليطلقها عبد الرحمن عبر ميكروفونه المحمول، من فوق أعناق حامليه.

كيف لي أن أتخيل أن ما أبنيه لمستقبلي من تصورات، واقفة على ما أعرفه عن نفسي بالفعل، قد تنقلب على نفسها. ومع انقلابها، تولد من رماد ذاتيتي ذات أخرى ما كنت أنتظرها. كل هذا بسبب شخص تعرفته في عامي الإعدادي بكلية الهندسة، مدرس اسمه يوسف قطيط، يعامل الطلبة كإخوة صغار، فينخرط في أنشطتهم، ويرعى بعـــضها، خاصة الأدبية منها، لما عرف عنه من حب للشعر قراءةً ونظمًا.

برغم إن محمد عطوة، من يومه، كان ملتزمًا، متدينًا، واعيًا بأمور السياسة، وأحوال الوطن؛ إلا إنه ما كان يعرف شيئًا عـــن التيـــار الإسلامي بالجامعة. وما كان لمصطلح (الإخوان المسلمون) بالنسبة له معنى أكبر أو أقرب منه لغيره من أبناء عمره وثقافته.

عبد الرحمن مكاوي.. من يومه كان ممسكًا بكل أطراف الحياة.. في السياسة، ناشط مهموم بكل قضايا مصر والعروبة.. في الدراسة،

متفوق ونابغ.. في الحب، عاشق ومعشوق من الدرجة الأولى.. حتى في الأدب، كانت له بضع محاولات قصصية، ارتقى بعضها إلى مستوى الإجادة.

أعود إلى هذه السنوات البعيدة، فلا أرى أي لافتة إرشادية تدل على مصائرنا. وقتها كنا نتخيل محمد عطوة وقد صار داعيًا إسلاميًا — وهو حلم كان يراوده بالفعل — وعبد الرحمن مكاوي ناشطا معارضا عظيم الشأن، وأنا قاصا وروائيا شهيرًا. فأبتسم.. ماذا ترك لنا القدر من كل هذا؟

حتى ما ظنناه مغروسًا بنا، مستعصيًا على رياح السنين انتزاعه.. صداقتنا ذاتها.. باتت الآن منتهكة، بالية، لا كيان لها.

كنا ثلاثة.. تعارفنا في العام الإعدادي.. افترقنا في المسار الدراسي بعدها.. فالتحق محمد بقسم الهندسة المدنية، وتجاورنا أنا وعبد الرحمن في قسم هندسة الإنتاج وصيانة الماكينات.. وبرغم هذا، بقينا ثلاثة، نتحرك معًا، نجلس معًا، نأكل معًا. حتى إننا ذات مرة، أحببنا سويًا نفس الفتاة! فكانت، كالعادة، من نصيب عبد الرحمن، فهو ما تأخر يومًا عن الوفاء لنداء قلبه. محمد لم يقل لفتاة في حياته كلمة حب، فأي ارتباط عنده غير الزواج محرم. وأنا كذلك لم أفعل، لإنني أجبن من أن أواجه فتاة بمشاعري، وإن كنت فعلتها مرارًا في كتابتي. ولكن عبد الرحمن ما كان ليخسر صداقتنا أبدًا بسبب فتاة، لذا لم تستمر علاقته بتلك الفتاة لأكثر من يوم، ثم تجاهلها تمامًا بعدها إرضاءً لنا، وتلبية لطلب لم نصارحه به أبدًا.

محمد أيضًا لم يكن ليخسرنا لأي سـبب، ولا حـتى لـصداقاته الجديدة لمجموعة من الشباب ذوي اللحي. أظن أن محمد، من أول يوم له في كنف تيارات الإسلام السياسي، كان يعلم جيدًا مـاذا يريـد منهم، وحدود علاقته بهم. أحيانًا يذكرني عبد الرحمن بهذا الآن:

ـ محمد لم يبد يومًا اقتناعًا بأفكارهم، خاصة المتطـرف منـها، فلماذا بقى على ارتباطه بهم، إن لم تكن المصلحة؟

ولكن أية مصلحة سياسية يرجوها شاب جامعي في عامه الدراسي الثاني؟! أم أن محمد عطوة هو الوحيد بيننا الذي نجح في رسم مصيره بيديه؟

صداقتنا لم تفتر حتى بعد التخرج. تباينت أعمالنـا، وتعارضـت مشاغلنا، ولم تتأثر صداقتنا.. محمد عطوة عمل في مجال البناء، انتقل بين أكثر من شركة للمقاولات، حتى بلغ مركز صـاحب شـركة، كشريك أولاً بين مجموعة شركاء، ثم انفصل عنهم، وأسس شـركته الخاصة.

عبد الرحمن تنقل بين أكثر من شركة خاصة ومصنع، حتى حـط رحاله في شركة أدوية كبرى، مملوكة للدولة. وكذلك أنا.. انتهى بي المطاف والسعي في شركة حكومية للغزل.

وبرغم هذا، وطوال تلك المسيرة، قويت صداقتنا، ولم تضعف.

فمالها الآن تسير إلى حتفها؟!

* * *

لم أكف طوال الأيام الماضية عن إطلاق اللعنات على رأس عبـــد الرحمن. فقد تكشف لي كل يوم مدى تأثري بآرائه، حتى إنـــني مـــا عدت أنظر إلى محمد عطوة، ويوسف قطيط إلا بنظرته.

كنت في هذه الفترة أحيا مرحلة حرجة وغريبة من صداقتنا. فقد بدا فجأة وكأنني الوحيد الذي قرر كل فرد من الثلاثة الآخـــرين أن يحتفظ بصداقته. يوسف قطيط لم يحاول أن يتصل بعبد الـــرحمن، أو يتخذ أي خطوة تعزز حالة التسامح الشفهي، التي يحرص على إبدائها تجاهه في حواراته معي. وكذلك لم يخف سخطه على محمد عطـــوة، الذي لم يزره في مرضه، برغم خروجه من السجن. وعبثًا حاولت أن أقنعه بوجهة نظر محمد بهذا الشأن، إلا إنني لم أنجح حـــتى في إقنـــاع نفسي، خاصة وأن محمد لم يحاول حتى الاطمئنان على الأستاذ هاتفيًا، أو ينفذ وعده لي بلقائه في النادي، أو النقابة.

محمد كان جادًا في قراره بالتخفف من علاقته بعبد الرحمن، وكان غريبًا في موقفه من يوسف قطيط. وكذلك عبد الرحمن لم يعبأ بخروج محمد من السجن، ولم يحاول أن يستعيد علاقته بالأستاذ، ولم أصدقه عندما أخبرني إن موقفه هذا مؤقت، لفترة يستعيد بها مشاعره الإيجابية تجاه الرجل.

برغم حالة الفتور الثلاثي تلك؛ بقيت جسور العلاقة الجيدة ممتدة بيني وبين الثلاثة، كل على حدة. لم يتغير في مواقفي، سوى انطباعي المفاجئ بنظرة عبد الرحمن للآخرين. برغم تباعد الاتصال بيني وبينه مؤخرًا، بفعل ما وصفه هو بـــمشاغل طاحنة في العمـــل، إلا إنـــني

تشربت تمامًا بفكره، فلم أعد أقبل بنفس الحماسة على آراء محمد عطوة السياسية، أو أوافق تسليمًا على أنشطة يوسف قطيط، الباحثة عن استقلال الجامعة.

برغم تعدد لقاءاتي بمحمد عطوة في نادي المهندسين، تلك اللقاءات التي أبدى فيها حماسًا لإيقافي على التفاصيل الكاملة لفترة سجنه الأخيرة، وحرصًا على إدخالي ـ ولو جزئيًا ـ في أجواء الصراع الدائر بين جماعتهم والحكومة؛ إلا إنني بقيت أستمع إليه كمصدر محايد للمعلومات، بلا أي استعداد للتعاطف معه إنسانيًا. كيف وأنا في منطقة ما من عقلي، لا أعفيه من مسؤلية كل ما يكابده. أغير السلطة شيء يدفعك إلى كل هذه المهانة يا محمد؟!

ويبدو أن يوسف قطيط تنبأ بشيء من هذا التغير في موقفي تجاهه. أو ربما هو حاول أن يقدم دفاعًا عن نفسه أمام اتهامات عبدالرحمن، ولم يجد أمامه سواي حكمًا. وقد تكون محاولةً منه لإثبات شيءٍ ما لنفسه، فيسعى للحصول على شهادة مني، تدعم ما اهتز من جدران ثقته بذاته، فقد بدا حرصه في الأيام الماضية، ومن أول لحظة لاستعادته لسابق نشاطه، على خرطي معه في أنشطته العامة.

دعاني إلى احتفال صغير أقامه له زملاؤه في نادي أعضاء هيئة التدريس بالجامعة، بمناسبة شفائه. وحرص على أن يقدمني لعدد من الأساتذة الكبار المنتمين بدورهم إلى حركة 9 مارس، وشاركهم في حديث طويل حاصروا به رأسي، عن أفكارهم وأنشطتهم، وعن التاريخ، حين كان بالجامعة رجال أحرار، يضعون كبرياء العلم فوق أي اعتبار. حدثوني عن تخليدهم لذكرى يوم 9 مارس، اليوم الذي

استقال فيه د.أحمد لطفي السيد من رئاسة جامعة القاهرة، لمجرد أن الوزارة نقلت أستاذًا جامعيًا ــ هو د.طه حسين ــ من منصبه دون استشارته، أو حتى إبلاغه، فذكرني حديثهم الدعائي هذا بإعلانات الحكومة عن منجزاتها تلفزيونيًا!

ودعاني مرة إلى اجتماع نادي أدبي، أسسه بنفسه، ليضم به طلابه الموهوبين أدبيًا. يجمعهم مرة أسبوعيًا، في قاعة اجتماعات صغيرة بنادي المهندسين. وكان هذا الاجتماع من أفضل الأحداث التي وقعت لي خلال الفترة الماضية. فيه نسيت كل شيء عن العاصفة التي تواجه صداقاتي، وعن حالة الضيق التي باتت تنفرني من بيتي، وعن جفاف القريحة الذي باعد بيني وبين روايتي الجديدة مسافات. وتعايشت لساعتين مع عدد من الشباب الموهوبين، وإن كنت لا أعرف إن كان ما جذبني إليهم حقًا هي كتاباتهم كما أدعي، أم توقيرهم لي ككاتب يعرفون ــ على الأقل ــ اسمه؟ بل ومنهم من قرأ روايتي الأولى بالفعل.

ذكرني هذا ــ بعد فترة نسيان طويلة ــ بأعمال ذلك الشاب، مصطفى راتب، فاستفسرت من يوسف قطيط عن إمكانية ضمه إلى النادي، ففاجأني بسؤالي عن مستواه، أنا الذي لم أقرأ أعماله حتى الآن، ولا أعرف حتى أين وضعتها. فقررت ــ في خضم حالة الحماسة الأدبية تلك ــ أن أدخل هذا الشاب إلى دائرة اهتمامي بجدية.

* * *

أدخل إلى بيتي أكثر ضيقًا واختناقًا مما كنت عليه من قبل. أجد وائل نائمًا، وزوجتي مسترخية فوق أريكة الـ (أنتريه)، تتابع مسلسلاً تليفزيونيًا. تسألني ــ مبدية تكاسلها ــ أن تعد لي العشاء، فأجيبها أن لا. أغوص في قلب متاهتي، باحثًا عن أوراق روايتي الجديدة، لا أهتم حتى بتبديل ملابس الخروج. فأنا ما أرغب إلا في وضع نفسي على المحك.. الآن أو لا إلى الأبد.

لو تركت نفسي لتيارات أهوائي، فلن أكمل هذا العمل أبدًا. لا يجب أن تخضع قريحتي لمزاجي الشخصي بهذا الشكل المهين.. يجب أن تمارس تمردًا يليق بقريحة كاتب محترف، إن كان بإمكاني أن أصبح واحدًا. بالأمس كانت روحي أكثر تألقًا، وحالتي المعنوية أكثر ارتفاعًا. كان للقائي بالشباب في نادي يوسف قطيط الأدبي مفعول السحر. وبناءً على هذه الحالة تحركت. ولكن ــ كالعادة ــ لم تأت النهايات على ذات ما أوحت به البدايات.

مساء ذلك اليوم، غادرت بيتي، مقتحمًا ــ بحماس حذر ــ شوارع وسط البلد.. عثرت على العنوان المنشود.. تأملت اللافتة أكثر من مرة. لم يكن التصور المطبوع، ضمنيًا، لوصف (مقهى في وسط البلد) ليتضمن شيئًا كهذا. ربما توقعت كافيتريا ما، أو مقهى كبيرًا يأوي بين رواده من هم ذوو مستوى اجتماعي، وثقافي مرتفع. ولكن لم أتوقع أن أجد ذلك المقهى الصغير، في ممر جانبي ضيق، لا يأوي سوى صبيان الورش التي تعج بها الشوارع الخلفية، وبوابين البنايات المحيطة، وشباب يبحثون عن ملاذ آمن، لتدخين سيجارة حشيش.

أتأمل تلك الوجوه حولي، متناثرة على مقاعد المقهى بطول الممر، محاولاً قدر الإمكان ألا أبدي تأففًا، أو اشمئزازًا، وإن كنت لم أبـــالِ بإخفاء ذهولي بالمثل.

عاد مصطفى بزجاجة مياه غازية مثلجة، وكوب فارغ، وضعهما أمامي مبتسمًا، ثم ألقى جسده النحيل فوق المقعد المواجــه لي عــبر طاولة خشبية متهالكة..

ــ أي صدفة سعيدة ألقت بي في طريقك يا باشمهندس؟

ــ هي ليست صدفة يا مصطفى. لقد جئت إلى هنا بحثًا عنك.

كست وجهه دهشة، بددها ابتسامة مشرقة..

ــ خير يا باشمهندس؟!

ــ لقد قرأت قصصك ليلة أمس.

اتسعت ابتسامته، فأكسبت قسماته ملاحة محببة..

ــ واضح أنها راقتك كثيرًا، لكي تأتي إلى هنا بحثًا عني!

ــ لقد ذهبت صباح اليوم إلى الشركة خصيصًا للقائك، فعلمت أنك في إجازة لأسبوع. أحد زملائك أخبرني إنك تعمــل مــساءً في مقهى بوسط البلد، وهو من أرشدني إلى هذا العنوان.

هز رأسه مؤيدًا، ثم موضحًا قال:

ــ هذا الأسبوع سأعمل هنا في وردية ليل تمتــد إلى الــصباح، فآثرت أن أحصل على إجازة من الشركة. فلن يكون بإمكــاني أن أخلص في عملي، أو حتى ألتزم بالحضور على هذا النحو.

سألته بعد تردد..

ـــ وكأنك مستعد للتضحية بوظيفتك، في سبيل عملك هنا؟

لم تخفت ابتسامته حتى..

ـــ العمل هنا أتربّح منه أفضل.

ثم أضاف بعد فترة صمت..

ـــ وعملي في الشركة مهم كذلك.. على الأقل هو يوفر لي غطاءً اجتماعيًا مناسبًا، حتى إذا ما ذهبت لخطبة فتاة ما، لا أقول لوالـــدها إنني أعمل نادلاً في مقهى بلدي.

أبديت تفهمًا بإيماءة من رأسي، ثم قررت أن أنتقل بالحديث إلى ما جئت لأجله..

ـــ آسف لإنني تأخرت في قراءة أعمالك.

ـــ على العكس، أنت لم تتأخر. أنا علمـــت يـــوم أن أعطيتـــك الصفحات، إنك حصلت على إجازة لستة أشهر، ولهذا مـــا كنـــت أنتظر منك ردًا، أو تواصلاً قبل هذه المدة. فأنا ما تخيلت أبدًا أن تأتي إلى الشركة سعيًا للقائي خلال إجازتك.

قررت عندها أن أصرح له بانطباع ينمو بداخلي..

ـــ لقد توقعت، وأنا قادم إلى هنا، أن أرى منك حماســـة ولهفـــة لمعرفة رأيي في كتاباتك، ولكن أظنني أخطأت التوقع!

ـــ ربما كنت ستجد هذه اللهفة، وتلك الحماسة ـــ وربما ما هـــو أكثر ـــ لو تم هذا اللقاء منذ شهر واحد مضى.

صمت، فسألته..

ـــ وما الذي تغير خلال هذا الشهر؟

أشاح بيده مؤيدًا قوله..

ـــ انتهت مسيرتي الأدبية

ـــ لماذا؟

ـــ إما أن أكتب.. أو أحيا!

ناشدته التوضيح، فاختفت ابتسامته لأول مرة منذ أن جمعنا المجلس..

ـــ أنا الآن أعمل لما يتعدى الأربعة عشر ساعة يوميًا.. ما بين عملي هنا، وعملي بالشركة، وباقي ساعات اليوم ممزقة ما بين محاولات التمسك ببقايا حياتي الخاصة، والنوم. فمن أين لي بالوقت للكتابة، فضلاً عن القراءة؟

ـــ وهل من الضروري أن تعمل لكل هذا العدد من الساعات؟

ضحك، فأدركت سخافة سؤالي..

ـــ أنا على مشارف الثلاثين يا باشمهندس. بلا نجاح، أو مدخرات، أو حتى حياة. أنا الآن في مرحلة أحتاج فيها إلى النقود، أكثر من أي شيء آخر.. على الأقل، تمسكًا بحقي في الزواج مثل أي كائن حي.

لا أجد ما أقوله سوى..

ـــ ولكنك كاتب جيد فعلاً.. أنت لا تتصور مدى انبهاري بكتاباتك.

ــ وهذا قول يسعدني كثيرًا يا باشمهندس.. ولكنه لن يغير بداخلي، سوى إكسابي مزيدًا من الحماس في العمل، فربما...

قاطعه أن ناداه زبون يرغب في الرحيل.. غادرني إلى حيث وقف الزبون عابثًا في جيب سرواله. تبادل معه كلمات قليلة، ثم تناول منه مبلغًا من المال، قبل أن يعود إلى مجلسه معي، وهو يدس النقود في جيبه..

ــ كنت أقول: ربما يومًا ما أستقر في حياة طبيعية.. زوجة وبيت، ووظيفة مربحة. ساعتها بالتأكيد، سأتذكر شهادتك تلك، وسأحاول الرجوع إلى سابق عهدي مع الكتابة.

برغم كل شيء، قررت أن أبلغه بما لدي. حدثته عن يوسف قطيط، وعن ناديه الأدبي، وعن تحمسه لمساعدة شاب في مثل موهبته.

ــ يا ريت يا باشمهندس.. ولكن من أين لي بالوقت لهذا؟

قالها بحسم أنهى أي حماس لدي للجدل. منحته رقم هاتفي، ورجاءً حارًا أن يتصل بي إذا ما رغب ــ في أي وقت ــ أن يخوض تلك التجربة.

5

أنا كرونوس..

لم يكتسب جسدي قوة..

ولكن خطواتي عرفت معنى..

للثقة..

لم تزدد قامتي طولاً..

ولكن جاوزت رأسي..

بمسافة..

قمم الجبال..

صوتي ـ دون أن تحمله الريح ـ

بلغ الطيور في فضائها..

فأوجفها..

وظلي سبقني..

فعبر ودياناً وسهولا..

مازالت أمامي أيام لأطأها..

أنا كرونوس..

عرفت قوة العزم..

والثقة التي توقدها الحماسة..

في البدن..

منذ أن عرفت لندائي اسمًا..

وتشكل لرغباتي مصير..

مصير كرونوس..

أن يغير قدره..

مصير كرونوس..

ينتظره هناك..

على أعلى قمم الأوليمب..

مصير كرونوس..

يقبع أمام قصر..

لم تقع عليه أنظار فان..

مصير كرونوس..

أن يتلاعب بالآلهة..

يقاتلهم إن لزم الأمر..

ليأخذ منهم..

عنوة..

ما حرم منه طوال حياته..

* * *

أكذب إن قلت..

إن الرعب تملكني..

وأكذب أيضًا إن قلت..
إن شجاعتي طمست خوفي..
فقط.. توارى الخوف..
وراء حماستي.
أنطلق مبتعدًا عن معسكر اللصوص -
ثقتهم بي تعاظمت مؤخرًا..
وتخطت حدود الحرص..
والمراقبة..
فتضاعفت حريتي..
مع تعالي مكانتي بينهم -
أستقر في براح من الفراغ..
في سهل ممتد أمام جبل..
على تخوم مدينة دلفي..
حيث بلغ بنا..
ترحالنا الدائم بلا هدف..
أضع حملي على الأرض..
الجوال القماشي..
يعج بتموجات حادة..
وأنين رفيع..
لجرو محبوس بداخله..

أخرج الجرو..

أستل السكين..

أمر بالنصل على رقبة الجرو..

متمتمًا بالصلاة التي أخبرني جلاكوس..

إنه سمعها تجري على شفاه الإسبرطيين..

في نداء إلههم آرس..

عشية الحرب.

أتممت الطقس..

بلغت حدود الانتظار..

وتوقفت..

حتى لاح لي في الأفق..

ضوء ما يقترب مسرعًا..

يومض على فترات متقاربة..

فاستدل على سرعة اقترابه.

بعد لحظات..

توقفت أمامي..

مركبة حربية ذات عجلتين..

تجرها أربعة جياد..

تشع ومضات الضوء..

من ألسنة لهب..

تخرج من مناخيرها..

مع لهاثها..

ينتصب فوق المركبة..

جسد ممشوق..

يحمل وجهًا شرس الملامح..

غاضب القسمات..

"من أنت أيها الفاني؟

وماذا تريد من إله الحرب؟"

قالها الإله..

الملفوف في درع برونزي لامع..

فركعت أمامه متضرعًا..

"خادمك كرونوس..

حداد فقير من دلفي"

"وماذا يريد حداد وضيع..

من رب المحاربين الأقوياء؟

أليس لك رب تلجأ إليه؟"

نطق كلمة (رب)..

في تساؤله الأخير..

بازدراء تمنيته..

"إنه هذا الرب يا مولاي..

رب الحدادة هو سبب شقائي..
وهو من بشأنه..
أبث إليك شكوتي"
"هيفستيوس"
نطقها بكراهية أحببت وقعها..
"هو هيفستيوس يا مولاي..
أذلني..
أحرق ورشتي..
أفقدني مهارتي..
صرف زبائني عني..
فعرفت الفقر بعد ثراء..
والنبذ بعد صيت ومكانة"
"عساك تقاعست..
عن إيفائه حقه؟"
"ليست هذه جريمتي يا مولاي..
وإنما أنت سبب شقائي"
"كيف؟"
"شقيقك هيفستيوس..
ابن أبيك العظيم زيوس..
وأمك هيرا..

ربة الأرباب..

هيفستيوس..

ساءه - على كراهيته لك -

أن أمجدك يا مولاي"

هبط آرس عن عربته..

تلاعبت نيران الغضب بوجهه..

وانتصب جسده القوي أمامي..

يغلفه بريق ينبعث رغم الظلام..

من درعه البرونزي..

"اروِ لي ما حدث"

"لقد بلغه يا مولاي..

أنني صنعت ترسًا..

لمحارب إسبرطي..

من عبادك المخلصين..

ووسمته له بصورة نسر محلق..

تيمنًا بطائرك الأثير..

فما كان من شقيقك..

إلا أن أنزل علي سخطه..

وعقابه"

تضاعف غضب آرس..

لوقع كذبي..

وإن بدت عليه حيرة..

ما لبثت أن استحالت لفظًا..

"وكيف تتوقع مني أن أنصرك على شقيقي؟"

"مولاي القوي..

يا من صبغت قوته..

ساحات المعارك..

بلون الدم الجليل..

يا نصير الشجعان..

وقاهر الجبناء..

يا رب الأقوياء..

والعتاة..

يا من ناله ـ بغير حق ـ

غضب أبيه زيوس..

مفضلاً عليه..

أخته الصغرى..

أثينا..

كإلهة للحرب..

وهي ليست بخير منه..

يا من أهانه شقيقه القبيح..

هيفستيوس..

وأذله أمام الآلهة..

ودفعه للفرار خزيًا..

بعد أن حرمه..

من محبوبته الجميلة..

أفروديت..

أيها الإله العظيم..

الذي لم يقدر أي من الآلهة..

قوته..

وبهاءه..

أعرف إنه يصعب عليك..

الوقوف أمام شقيقك متحديًا..

فالآلهة يعدونه خيرًا منك..

وأبوك ذاته..

يؤثره عليك..

فإن قاتلته..

وقفوا جميعًا في صفه..

ورموك بالخيانة..

كما فعلوا من قبل"

بلغ غضب آرس..

حدود الثورة الكاسحة..

على نغم كلماتي.

أراهن بنفسي..

ألعب بعمري ذاته..

فقد تدمرني غضبة الإله..

ولكن ما أمامي لأخسره..

أنا كرونوس..

نجاحي.. أو لا شيء..

الإله يمسك بتلابيبي..

ويصيح بقسوة..

تخفي تأله..

"إلام ترمي بكلماتك المسمومة تلك..أيها الفاني؟"

"مولاي العظيم..

أعنّي على هيفستيوس..

أهزمه بيدي..

وليكن في هذا ثأرك..

ونجاتي من اللعنة"

يطلق الإله ضحكة مخيفة..

تهتز لها الأرض..

"أتظن أنه يسهل عليك..

أن تقاتل واحدًا من أقوى الآلهة؟

هذا إن لم يمزقك مساعدوه..

السيكلوبات..

أولئك العمالقة..

ذوو العين الواحدة"

"يسهل عليّ يا مولاي..

إذا ما أيدني..

ونصرني..

إله عظيم مثلك..

إله يفوق هيفستيوس..

قوة ودهاء..

إله الحرب والقتال ذاته..

آرس المبجل"

حررني الإله..

فسقطت أرضًا..

"ما العون الذي تبغيه؟"

"القوة..

القوة يا مولاي..

كقوة هرقل ذاته"

هازئًا قال..

"أنت أيها الضئيل..

تطمع في قوة إله؟!"

"من أجل الحق يا مولاي..

من أجل أن أنصرك..

وأذل عدوك..

سيقولون إذا ما حققنا نصرنا..

إن هيفستيوس..

بلغ من الضآلة ، والهوان..

أن هزمه مجرد فان..

ولكنني سأذكرهم..

إنني لم أكن مجرد فان..

فأنا فان ينعم بنصرة وتأييد..

آرس..

أقوى الآلهة"

عندها..

رسم الرضا..

قسمات الخيلاء..

على صفحة الوجه الحاد..

فأدركت إنني اخترقت الحواجز..

ونفذ سهمي إلى مراده..

تذكرت خوف جلاكوس عليّ..

بعد علمه بعزمي..

"أتظن يا كرونوس..

الآلهة العظام..

بهذا الحمق؟"

أحتضنه مودعًا..

وفي أذنه..

أهمس بكلمات..

"أجل يا جلاكوس..

فهم يتعامون بغطرستهم عن الحقيقة..

ويتعالون بسلطتهم..

على الواقع..

فتكبلهم الخيلاء..

ويسمل أعينهم..

الغرور"

فها هو آرس..

يقرر..

"لك ما تريد"

* * *

في صباح اليوم التالي، استيقظت وقد غادرتني كل المشاعر التي نمت عليها. كان فشلي مع مصطفى راتب يمثل شيئًا من الصدمة يهزني من الأعماق. ربما ظننت لوهلة أن هذا الشاب هو طريقي للعودة لحياة أكثر نفعًا وإيجابية.. ربما اقتبست شيئًا من حماسة يوسف قطيط، الستيني الذي لم يفتر نشاطه، ولم يكل من مد يد العون للشباب.. ربما نسيت لبعض الوقت روح اليأس المستمدة من عبد الرحمن، فأعادني إليها لقائي الليلي بهذا الشاب المهزوم. حتى مد يد العون فات وقته. اليأس انتصر في معركته، وبذرة الاستسلام باتت نبتة عالية، يرفل الكل في ظلها.. والمجد لعبد الرحمن مكاوي، نبي هذا الزمان!

من باب إراحة الضمير، هاتفت يوسف قطيط، وحكيت له تفاصيل ما كان من لقائي بمصطفى راتب، فثار الرجل في وجهي، واتهمني بقلة الضمير. فكيف أكف يدي عن هكذا جريمة، يرتكبها شاب في حق نفسه، وأنام مرتاح البال؟! حاولت أن أشرح له مبررات الشاب بكلماتي أنا، فقال لي: إن قتل روح موهوبة، جريمة لا تعادلها جريمة. فإذا سقط منا كل يوم عقل مفكر، وانكسرت روح شابة، فلنلق على البلد السلام.

في أعماقي صحت به ثائرًا: وهل ستنفق عليه أنت إذا تزوج؟! وهل ستربي ـــ من مالك ـــ أبناء كل موهوب هجر إبداعه ليسد جوعه؟! في النهاية طلب مني أن أحضر له كتابات مصطفى ليقرأها. قال لي إنه إذا ما وجد الشاب بالفعل يتمتع بهذا القدر من الموهبة الذي أتغنى به، فإنه سيتصرف بنفسه في أمره. لم أحاول أن أسأله عن

طبيعة هذا التصرف، واكتفيت بكتمان سعادتي لإلقاء هذا الأمر عن كاهلي.

ومن فرط الراحة،عدت إلى النوم أثناء انهماك زوجتي في إعداد قهوتي الصباحية، وفشلت كل محاولاتها لإيقاظي إلى قبيل وقت الغروب.. حتى إن الأمر اختلط علي، وظننت في نومي اكتئابًا ما. فما كدت أصحو، حتى هاجمتني رغبة جديدة في النوم. ظننت وقتها إنني بهذا أهرب من مفردات حياة ما عدت أهواها، وهو ظن منبعه ـــ من جديد ـــ غياب القدرة على توقع المصائر. فلو كنت أدري بما سيلي من أحداث، لقلت إن نومي هذا اليوم، لم يكن سوى استعداد لمرحلة من حياتي، هي الأصعب، والأكثر حسمًا..

* * *

كنت ألاعب النعاس، أفر منه، أدعوه لمطاردتي، أوحي إليه بقرب استسلامي، ثم فجأة أهب نشطًا مخرجًا له لساني. فقط لأكتشف أنني أخدع نفسي، وأن رأسي قد تدلى بالفعل على صدري. عندما أعلن عبد الرحمن ـــ برنة جرس ـــ وقوفه ببابي بغير موعد. هُزِم النعاس أمام الدهشة، ووجدتني بغير لياقة أصيح بوجهه:

ـــ عبد الرحمن؟! مالذي أتى بك؟!

حتى إنه أطلق ابتسامة، فشلت في مداراة ارتباكه..

ـــ آسف لهذه الزيارة المفاجئة. أنا فقط كنت مارًا بشارعك مصادفة، واجتاحتني رغبة قوية في محادثتك بأمر مهم.

أفسحت له الطريق:

ـــ ادخل!

ـــ كلا.. سأنتظرك في السيارة إلى أن تبدل ملابسك.

ارتحت لرفضه عرضي المجامل، فقد كانت زوجتي منهمكة في جلسة اعتيادية إلى طاولة السفرة، تستذكر فيها دروس اللغة الإنجليزية. ووائل يلعب بجوارها، في فترة نادرة من فترات راحته من المذاكرة. ولم أحب أن أعكر صفو ليلتهما.

بدلت ملابسي على عجل.. شحنت زوجتي عقلي بقائمة طويلة لأغراض منزلية عليّ شراؤها في طريق العودة.. غادرت إلى حيث وقف عبد الرحمن بجوار مقدمة سيارته. كان نظره يرنو باهتمام إلى اللافتة المواجهة للبناية..

ـــ يبدو أن الصورة باتت تعجبك.

قلتها مازحًا، فأجابني بكل الجد:

ـــ هي مجرد لافتة مفرغة.. الصورة جميلة.. ولكن برأيك، كم يبلغ حجم الفراغ خلفها؟ هل يظنون إن صورة جميلة، بإمكانها أن تداري خرائب أعوام من الهدم، وعهود من صناعة الخواء؟

هالني قوله، فقلت مازحًا:

ـــ هذا قول صادر من فم شاب مفعم بالحماس عرفته قديمًا، كان يحمل نفس اسمك على ما أتذكر.

ابتسم بلا تعليق، فقط ولج سيارته، ودعاني للركوب.. أخبرني إنه ليس بحاجة إلى زحام أو ضوضاء، لذا ما لبث أن أوقف السيارة في أقرب شارع توسم فيه الهدوء. أقلقني ما لمسته به من شرود، وانشغال، وهما أمران لم أعهدهما فيه منذ زمن، فكان طبيعيًا أن أسأله:

ـ ما بك؟

وكأنه كان ينتظرها كإشارة انطلاق، قال:

ـ أنا ضائع كما لم يحدث من قبل.. فجأة تداعى كل شيء، وبات سلامي النفسي مهددًا. حياتي التي أعرفها على شفا اختبار صعب، حتى إنني عرفت طعم الاكتئاب للمرة الأولى في حياتي، التي طالما انقسمت لقسمين.. من قمة الحماس والفاعلية، إلى قمة اللامبالاة. والآن أنا ممزق بينهما، ولا أجد مهربًا، وقد بات صدقي أمام نفسي على محك التجربة.

هالتني كلماته الفلسفية، المحملة بآثار هموم ثقيلة..

ـ وما الذي وضعك في هذه الحالة؟ أرجو ألا تكون كلمات يوسف قطيط؟

ابتسم..

ـ كلمات يوسف قطيط جاءتني في وقت كانت فيه هذه الأحاسيس تتلمس خطواتها إلى أعماقي.. جاءت لتعريني أمام نفسي.. وتتعجل قيام النزاع. لذا كرهتها.. ولكنها لم تكن أبدًا سببًا لما ألم بي.

ـ ما السبب إذًا؟

شرد لفترة عبر زجاج السيارة الأمامي..

ـــ الشركة حيث أعمل، طالها برنامج الخصخصة.

صمت، فتعجبت.. فالموضوع ليس بجديد.

ـــ لقد باعت الحكومة بالفعل 40% من أسهم شركتكم في البورصة.. فما الجديد في هذا؟

أجابني:

ـــ الأمر من البداية لم يرحني، فالأسهم المباعة كلها استحوذت عليها شركة واحدة أردنية الجنسية تعمل في مجال الصناعات الدوائية، فقررت أن أتحرى الأمر..

بلا وعي قاطعته..

ـــ تتحرى الأمر! وما شأنك أنت بهذا؟

اكتفيت بهذا الاستفسار، وآثرت ألا أزيد عليه قولاً مثل: وأين كانت لامبالاتك حينها؟!

ـــ لقد أقلقني الأمر.. طبيعتي المتشككة أبت أن تهدأ، إلا بعد أن أجريت إتصالاتي بأكثر من مصدر، ما بين أصدقاء يعملون في دول عربية، وصحفيين مال واقتصاد.. حتى جاءتني الأخبار تحمل ما كنت أخشاه.. فالشركة الأردنية، تساهم بها بنسبة كبيرة، شركة إسرائيلية كبرى..

قلت له مستهزئًا:

ـــ أهذا ما يقلقك؟

بدهشة قال:

ـ أتراه بالأمر الهين؟! أنا لم أعرف النوم لأيام عدة مضت. لا أفعل سوى أن أختلي بنفسي مفكرًا. والليلة كنت أجوب الشوارع على غير هدى، عندما وجدتني أمر أسفل بنايتك، ففكرت أنك الشخص الوحيد الذي يمكن أن يشاركني هذا الهم.

ـ أي هم؟! ألم تعلم بعد أن لإسرائيل وجودًا اقتصاديًا رسميًا في مصر، وباتفاقيات مع الدولة؟ ومعاهدة سلام؟

ثار في وجهي..

ـ ولكن الحال ليس هكذا في قضيتي.. لو كان الأمر نظيفًا، لما أتوا عبر وسيط عربي.. هم يعلمون ـ ومن يدعمونهم هنا ـ إن الدواء ليس قطاعًا متاحًا لتدخل الصهاينة به، وأي شيء كهذا سيثور له الرأي العام..

جاريته في عصبيته..

ـ إذًا هي لعبة.. تمامًا ككل شيء.. أليست هذه هي كلماتك؟ ما الذي يضيرك إذًا، ويصدمك إلى هذا الحد؟

تضاعفت ثورته..

ـ ألم تفهم بعد؟ هذا هو ما يضايقني.. هذا هو ما يمنعني من النوم.. فقد اكتشفت إن كل أفكاري السابقة كانت هباءً.. أنا الآن مهتم.. بل وأغلي غيظًا.. وأفكر في اتخاذ موقف.. وهذا وحده كفيل بإصابتي بكل هذا الارتباك.. فأنا ما عدت أفهم نفسي..

هدأت مع تسلل كلماته إلى عقلي..

ـ إذًا فقد كان رأي يوسف قطيط بشأنك صحيحًا.

ـ هذا هو ما أحاول مواجهته الآن..

لفترة غلفنا الصمت.. استغرقنا في اتجاهين منفصلين من التفكير.. قبل أن أقول:

ـ انطلق بنا إذًا إلى منزل يوسف قطيط..

ـ لماذا؟

ـ أولاً، لإن هذا الرجل أكد، في كل موقف له معنا، إنه على درجة كبيرة من الفهم لشخصياتنا، وبالتالي سيكون هو الشخص الأنسب لتلقي عليه بأزمتك النفسية تلك. وثانيًا، لإنك مدين له بالاعتذار.

زفر مطلقًا حزمة انفعالات ضارة من جوفه..

ـ لا أظن إنني مستعد لهذه المواجهة الآن.

ـ بالعكس.. أظن هذا هو الوقت المناسب.. واضح إنك بقيت لفترة أطول من اللازم تخدع ذاتك. وأظن في مواجهة مع يوسف قطيط علاجًا لحالتك.

بدت عليه علامات التفكير، ثم نظر إلى ساعته قائلاً:

ـ حتى لو أردت، فالوقت تأخر على مثل هذه الزيارة.

متحمسًا أجبته:

ـــ الأستاذ مستعد لاستقبالنا في أي وقت.

وأكدت على كلامي بإخراج هاتفي.

ـــ سأهاتفه فقط لأهدم حجتك..

طلبت رقمه، وانتظرت لثانية. أتاني رده بأسرع مما توقعت، يحمله صوت متهدج..

ـــ لقد كنت على وشك الاتصال بك..

أقلقني، فسألته:

ـــ خيرًا يا أستاذي؟

ـــ لقد ألقوا القبض على محمد عطوة.

قلت بلا تأثر حقيقي:

ـــ لماذا؟ ألم يطلقوا سراحه مؤخرًا؟

ـــ الأمر ليس مثل كل مرة.. هذه المرة هناك اتهام خطير موجه إليه، وهو الآن في طريقه إلى نيابة أمن الدولة للتحقيق معه.

أخبرني أيضًا إنه ـــ أي يوسف قطيط ـــ متواجد الآن في نقابة المهندسين، مجتمع مع اثنين من أعضاء مجلس إدارة النقابة، محاولاً اقناعهم بضرورة تدخل النقابة للدفاع عن محمد وعدد آخر من الموقوفين على ذمة نفس القضية، من المنتمين بالعضوية لنقابة المهندسين.

انهيت الاتصال. ونقلت فحواه لعبد الرحمن، الذي لم يعلق بحرف. أحنقني صمته، فقلت له مشاكسًا:

ـــ أتظن محمدًا قد كُتبت له بهذه القضية نهاية مؤلمة لسعيه نحـــو السلطة؟

فنظر إليّ بغضب، وقد فهم ما أحاول أن أجره إليه..

ـــ أنا ما عدت أظن أي شيء.

* * *

في الأيام التالية انشغلت تمامًا بمتابعة قضية محمد عطوة. علمت أن إلقاء القبض عليه لازمه قيام الشرطة بإغلاق شركته، والتحفظ على جميع ممتلكاته وأرصدته البنكية؛ فالاتهام الرئيسي الموجه له، ومجموعة من رجال الأعمال المنتمين للجماعة، هو القيام بعمليـــات غـــسيل أموال، عن طريق ضخ الأموال التي تهرب للجماعـــة مـــن جهـــات خارجية، أو تجمعها من تبرعات أعمال الخير في رؤوس أموال هـــذه الشركات، ثم الإنفاق على أنشطة الجماعة من أرباحها.

وكعادته وقف يوسف قطيط موقفًا نشطًا من القضية. وعمل على أكثر من محاولة لتوجيه النقابة باتجاه الموقف المؤيد للمتهمين من أعضاء النقابة، على اعتبار أنها قضية سياسية بالأساس، وأن هذا الضرر إنما وقع عليهم لاتخاذهم موقفًا معارضًا. ولكن كل محاولاته تصدى لهـــا مجلس إدارة النقابة، الذي يدين أكثر أعضائه بالولاء للحزب الحاكم. فقط وافقوا بصعوبة على تكليف محام بالدفاع عنهم باسم النقابة.

ولكن يوسف قطيط لم ييأس، وحاول أكثر من مـرة أن يحـرك القضية على مستوى أعضاء النقابة. وقد حضرت معـه ـ كعضو بالنقابة ـ أكثر من جلسة عقدها يدعو فيها الأعضاء لاتخاذ موقف ما، سواء بالتظاهر أو بالاعتصام. استجاب لـه الـبعض، وتجاهلـه البعض، ولمزه آخرون بشكوك في انتمائه الإخواني، فكان يقول:

ـ هو أمر لا يحتاجك (إخوانيًا) ليستفزك.. يكفي أن تكون إنسانًا مستقلاً، وصاحب رأي.

اندمجت معه تمامًا تلك الأيام. ولأول مرة أجد ما يخرجني حقيقة، بكامل مشاعري من ضيقي واختناقي. وتمنيت لو كان معنـا عبـد الرحمن، لنعيد أمجاد أيامنا الخوالي. إلا أنه كان لم يزل تائهًا في مأساته الخاصة. حاولت أن أوليه بعضًا من اهتمامي، إلا إنه أخبرني في آخر مكالمة، إنه على وشك الوصول لقرار ما.

وصدقًا أقول إنني بلغت في هذه الفترة ذروة انبهاري بيوسـف قطيط وحماسته، حتى إنني شعرت بنفسي أتقد بصحبته من بعد طول انطفاء. فبرغم جهاده من أجل محمد، الذي فاق -ربما- مـا فعلتـه جماعته من أجل الدفاع عنه، لم يتخل عن حضور الجلسة الأسـبوعية لناديه الأدبي. بل ولامني لإنني تأخرت في تسليمه أعمال مـصطفى راتب كما وعدته. فوجدتني ذات مرة ـ وقد صرت مفتونًا بمصاحبته إلى جلسات النادي ـ أقدم إليه في إحدى الجلسات، كـأي مـن الشباب المحيطين بنا، قصة كتبتها بالأمس فقط، استوحيت أحداثها مما عاشرته من أحداث في قضية محمد عطوة، أسميتها: (حالة مستعصية)،

ووجدتني أستعيد حالة من النشوة، أعادتني لأوقات تلقي الثناء، والتصفيق، والابتسامات المبهورة، من شباب كنت وقتها في مثل عمرهم. فلم يمنعني فارق السن الآن، من الوقوف من جديد على نفس الإحساس، وأنا أتابع تدفق كلمات الثناء على لسان يوسف قطيط بعد أن انتهيت من قراءة قصتي.

سعدت كثيرًا في هذه الأيام. حتى أعادني الأستاذ من جديد إلى قضية محمد عطوة، عندما هاتفني ذات نهار..

ـ لقد جئت للتو من السجن حيث زرت محمد بصحبة المحامي.

تعجبت لكلامه، فلم يكن قد أخبرني من قبل عن عزمه للقيام بهذه الزيارة، تذكرت كلمات محمد عطوة لي في المقهى. عندما شرح لي أسباب حرصه على نفي أي علاقة شخصية بينه وبين يوسف قطيط، فتملكتني مخاوف، كدت أن أصارح بها الأستاذ، لولا أن سبقني..

ـ إنه يرجوك أن تذهب لزيارته.. يقول إنه يريدك لأمر مهم.

* * *

6

ما كانت القوة لتشفع لي..

في رحلتي..

فوق الصخور المدببة الحادة..

كآلاف الشفرات..

فلا تدمي قدمي..

لذا التزمت الحذر.

لففت قدمي في صندل قوي..

ولففت الصندل في أقمشة الصوف الثقيل..

وحملت عصا..

أتزن عليها..

فلا أسقط مقطعًا لحمي.

كان بيد آرس أن ينقلني مباشرة..

إلى كهف هيفستيوس..

إلى قلب ورشته ذاتها..

ولكنه آثر أن ينقلني ـ

بعربته التي تجوب السماء..

كما تنهب الأرض ـ
إلى القرية الأقرب..
من جبل هيفستيوس..
لم أفهم سببًا لهذا في البداية..
ولكن لم أشأ أن أعترض على قرارات الإله..
الذي اخترت ـ كذبًا ـ
أن أتشح برداءات الخضوع أمامه..
وإن كنت ظننت الآن..
إنه ربما قرر اختبار عزمي..
أو مداعبتي بقسوة..
بأن يضعني أمام امتحان عبور..
الجزء الأصعب من الطريق..
إلى مقر الحداد الأعظم..
خاصة وأنا أعلم أنه يراقبني..
وإلا فماذا يفعل ذلك النسر..
فوق رأسي..
منذ أن غادرت القرية؟

* * *

لم يتغير شكلي..
أو تنتفخ عضلاتي..

أو تكسوني القوة العاتية..

سمتًا مميزًا..

ومع هذا..

كنت أختال زهوًا..

بما أشعر به..

يفور بأعماقي..

طاقة عظيمة..

وثقة..

ترفعني لناطحة السحب.

فأتذوق نشوة..

وسعادة طفولية..

وشيء من غرور..

بالطبع اختبرت قوتي..

أكثر من مرة..

ربما حدثتني نفسي لبرهة..

وأنا أقطع طرقات القرية مرحًا..

أن أجرب قوة لكماتي..

على أول وجه يلاقيني!

ولكن قوة عزمي..

حالت بيني..

وبين توهمات القوة تلك..

* * *

بلغت ـ بعد معاناة ـ

تلك الفجوة في جدار الجبل..

كشيطان فاغر فيه عن ضحكة..

تقود إلى أغوارٍ مظلمة..

عطنة..

كقلب كابوس.

أقطع الأمتار على غير هدى..

فقط أتقدم..

مخترقًا الظلمة..

نحو المزيد من الظلمة..

إلى ما لا نهاية..

لا أجنح إلى المغامرة فأشعل ضوءً..

فينكشف أمري قبل أوانه..

أواصل تقدمي..

حتى يسقط عن رأسي..

إدراك الزمن..

أيكون مدخلاً مضللاً..

ذلك الذي اجتزته؟

ولكن..

قبل أن تستحيل حيرتي يأسًا..

ألمح خيالاتِ ضوءٍ..

يتراقص من بعيد..

ويردد الكهف..

صدى طرقات مدوية على الصخر..

أتقدم مشتعلاً بحماسة وليدة..

متشحًا بحذر لا بد منه..

أتوارى خلف نتوء صخري..

أتأمل هذا المشهد العجيب.

أولئك العمالقة ـ

السيكلوبات..

وحيدي الأعين..

عند منتصف جباههم..

يطرقون جدران الكهف بمعاولهم..

يسقطونها قطعًا كبيرة ـ

لم يكونوا هم مصدر العجب..

وإنما أولئك الذين يسعون تحت أقدامهم..

يحملون سقط الصخور..

في عربات حديدية..

يدفعونها أمامهم..

إلى قلب الورشة بالتأكيد..

أولئك..

رجال صنعوا من حديد!

على خلقة البشر..

يروحون ويجيئون..

وكأنما في أعماقهم روح..

تمامًا كالبشر.

يجمدني العجب لفترة..

متأملاً..

ثم أقرر أن أتخذ الطريق الوحيد المتاح..

إلى حضرة الإله.

أظهر نفسي لأعين السيكلوبات..

أرتمي أمامهم..

في وضع سجود ذليل..

"أيها العمالقة العظماء..

حطاب ذليل..

لا أمل له.. ولا رجاء..

سوى في لقاء..

إلهنا العظيم..

هيفستيوس..

فإن شئتم حققتم له رجاءه..

فما من شيءٍ في هذا..

بغريب على حكمتكم.

ورقة قلوبكم..

وإن شئتم..

سحقتموه عقابًا لوقاحته..

وتجرؤه على تدنيس..

حرم الإله..

فما من شيء أضفتموه..

أكثر مما فعله به الدهر..

وغضبة إله ظالم..

يدعى آرس"

مر وقت دونما رد..

أو حتى حركة..

رفعت وجهي متأملاً..

فرأيتهم يتبادلون فيما بينهم..

نظرات بليدة..

تنطق بالغباء!

* * *

أفلتني السيكلوب..

لأسقط متألمًا..

فوق أرض قاسية.

كانت القاعة فسيحة..

كل ما بها يتألق بوهج لهب..

لا يصدر من مشعل..

أو من كور..

وإنما يسيل على الجدران..

نارًا بركانية مخيفة المظهر..

تصب في نهير..

يقطع القاعة متمهلاً..

إلى مكان غير بادٍ للأنظار.

تجمد المشهد..

كل من بالقاعة..

من سيكلوبات..

ورجال حديديين..

توقفوا عن ضجيج طرقاتهم..

ليتأملوا في مظهري الشاذ بينهم.

تابعت ببصري..

السيكلوب الذي أحضرني..

وهو يختفي في ركن ما..

ثم..

ومن نفس ذلك الركن..

ظهر أبشع رجل رأيته في حياتي..

قبيح المظهر..

بشكل غريب على البشر أنفسهم..

فكيف بإله؟!

تقدم مني..

بجسد يتأرجح..

فوق عرج حاد بساقه..

وهتف..

بأغلظ صوت سمعته في حياتي..

ارتج الكهف لصداه..

"من أنت أيها الفاني؟

وبأي وقاحة تتسلل إلى هنا؟"

أركع تحت ساقه العرجاء..

"عبد ذليل يا مولاي العظيم..

عبد قهره تبجيلك..

ودمره إخلاصه لاسمك..

عبد..

قضى عليه ظالم..

لا يعرف الرحمة..

يظن نفسه بذلك..

قد أشبع ظمأه لإهانتك"

"من تقصد؟"

أرفع إلى وجهه القبيح..

عينين دامعتين..

"شقيقك الوحيد..

آرس"

يصرخ..

حتى لتتوارى السيكلوبات..

خوفًا..

"آرس؟"

"أجل يا مولاي.

آرس..

ساءه أن أعبدك..

وأوقرك..

وأمجد اسمك..

أنا الحطاب المسكين..

أدركت قبل أن تنمو لحيتي..

عظمة النار..

وما تحمله من قوة..

وحنو..

خوف..

وبهجة..

فقدستها..

وقدست ربها..

العظيم هيفستيوس.

أنا يا مولاي..

حطاب فقير..

أسكن مشارف غابة وارفة..

على تخوم..

إسبرطة..

حيث المحاربون القساة..

عبدة آرس المخلصون..

سلطهم عليّ رب السوء..

فساموني العذاب..

اختطفوني من بيتي بليل..

طلبوني لجيشهم..

وأنا لست بواحد منهم..

أذلوني..
لإنني لم أنشأ ـ مثلهم ـ
على طعم الدم..
وصليل السيوف..
وأمروني أن أتضرع إلى آرس..
وأمجده..
فأدركت إن هذا إنما هو مرامهم..
حتى إنهم هددوني بقتل أطفالي..
إن لم أكفر بك..
وأنقل ولائي لربهم"
صمتّ مطلقًا العنان لدموع الزيف..
فسعدت لقول الإله..
"وبماذا أجبتهم؟"
"رفضت يا مولاي..
رفضت..
حتى اللحظة الأخيرة..
كنت أترنم باسمك الجليل.
قتلوا أسرتي..
حرقوا بيتي..
لعنني آرس..

فأصابني بالهزال الذي ترى..

بعد قوة وعنفوان..

كانا هما رأس مال..

زادي القليل..

وطردني من الأرض التي نشأت بها..

فاتجهت لفوري إلى الساحل..

وصعدت على ظهر أول سفينة..

متجهة إلى ليمنوس..

جزيرة هيفستيوس المقدسة"

انتهيت من حكايتي..

ففعل ما لم يفعله آرس..

وما لم يكن في حسباني..

مد يدًا غليظة..

خشنة..

أطبقت بالكامل على أم رأسي..

أغمض عينيه..

وتنشق الهواء..

ثم ما لبث أن نزع يده مسرعًا..

وسدد إليّ عينين بركانيتين..

فقفز قلبي من موضعه..

وتأهبت لتجربة قوتي الجديدة..

"أنت ملعون بالفعل أيها الفاني"

نظرت إليه مستشعرًا نجاتي..

فتابع..

"عليك لعنة إلهية من أقوى ما رأيت"

أعلم بالطبع..

ولكن زيوس هو من لعنني..

أبيكم أيها الحمقى..

"أيها العظيم هيفستيوس..

يا أقوى الآلهة وأحكمهم..

أعني على الثأر من آرس"

كما قال آرس..

قال هيفستيوس..

"أتريدني أن أحارب شقيقي لأجلك؟"

"مولاي العظيم..

أعرف إنه ليس بمقدورك..."

هدر مقاطعًا..

"ماذا تقول أيها الوضيع؟"

حتى إن السيكلوبات تحفزوا..

وأطلق بعضهم زمجرة غضب..

"أنا لم أقصد يا مولاي..

أنا فقط أشير..

إلى الموقف الذي قد تواجهه إن فعلت..

أعني أمك هيرا..

ربة الأرباب..

التي تفضل عليك آرس..

ابنها المدلل..

الجميل..

هيرا..

التي نبذتك لحظة أن وقعت عليك عيناها..

وليدٍ شق طريقه من رحمها للتو..

هيرا..

التي استقبحتك..

فألقت بك من علياء الأوليمب..

لتسقط هنا..

وتكسر ساقك المقدسة..

هيرا ستقف بالتأكيد في صف آرس..

وأنت تعرف جيدًا..

ما تريده هيرا..

يفعله زيوس..

هو حتى لم يبد لك يومًا..

ما تستحق من احترام..

برغم كل ما فعلته لأجله..

أنت تعلم إنه في الأعماق..

لا يحبك..

ألم يزوجك من أفروديت الجميلة..

لمجرد إنه شاء عقابها؟

أهكذا ينظر إليك زيوس..

رب الآلهة..

وأبوك؟

فيرى فيك بشاعة..

تؤهلك لتكون عقابًا لامرأة..."

بغضب أقل..

وثورة بدا اصطناعها..

قاطعني هيفستيوس..

"اصمت أيها الفاني..

يا لك من لئيم..

تجيد الوصول إلى مرادك..

أتريدني أن أقتنع..

أن غضب آرس عليك..

من شأني؟"

"هو كذلك بالفعل يا مولاي..

فنحن الفانون..

نعرف كيف يحاول آرس..

بكل طريقة..

أن يهين اسمك..

ويقطع ذكرك..

من عالمنا..

وأي فان..

يعرف حكايات..

عمن نالتهم لعنات إله الدم..

لمجرد تقديسهم لك..

وهو شيء ليس بجديد على آرس..

وإنما هو ديدنه..

منذ أن أهنته أمام كل الآلهة..

وكشفت لهم علاقته الآثمة..

بزوجتك..

أفروديت"

زمجر الإله غضبًا..

عند ذكري لزوجته..

"إنك وقح أيها الفاني..

وقد تقودك وقاحتك إلى حتفك"

"مولاي العظيم..

إنما أشكو إليك حالي..

وأرجو عونك..

وتأييدك..

ولا شيء أمامي لأخسره..

فإن نلت رضاك..

فقد جاءتني الدنيا بما فيها..

وإن قتلتني..

فلا أحب علي من أن أحمل إلى (هيدز)..

موسومًا باسمك الغالي"

ضحك الإله..

"ألهذه الدرجة تقدسني؟"

"مولاي هيفستيوس..

ومن في الآلهة أجمعين..

أحق بالتقديس منك؟"

سألني..

"ولا حتى زيوس؟"

واريت في الأعماق ارتباكًا..

لسؤاله المفاجئ..

"بجوارك.. لا أرى أحدًا"

"يالك من ثعلب منافق..

أيها الفاني..

ما دليل صدق ولائك لي؟"

"إن شئت يا مولاي..

أخوض بجسدي الهزيل..

نهر النار هذا"

مسح وجهي بعينيه..

قطع بضعة أمتار أمامي..

توقف..

"كيف برأيك ستحقق انتقامك من آرس؟"

"سأتحداه في قتال"

ضحك حتى تهاوت من جدران الكهف..

أحجار..

"أنت تريد أن تقاتل إله القتال؟!"

"آريس ليس بمنأى عن الهزيمة..

وقد كاد أن يُصرع ذات مرة..

هناك..

أمام أسوار طروادة"

"ولكنك لا تبدو لي..

كمحارب بهذه القوة"

"الأمر يا مولاي لا يحتاج لقوة..

فقط يحتاج سلاحًا..

سلاحًا يمكنه أن يخترق..

درع آرس البرونزي..

ويقتنص روحه"

ردد الإله..

"سلاح؟"

"أجل يا مولاي..

سيف..

رمح..

كلاهما..

وربما.. درع منيع..

يحول بين جسدي..

وبين أسلحة آرس القوية"

لم يبعد عينيه عن عيني لفترة..

فقد وجهه التعبير..

فتساوت عندي التوقعات..

قد يعانقني الآن..

أو يهشم رقبتي..

بضربة كف..

ولكنه ما لبث أن عانق الأرض..

بنظراته..

وبدا وكأنه..

على وشك اتخاذ قرار..

* * *

كنت لم أزل متأثرًا بكلمات محمد عطوة ــ برغم مرور يومين ــ عندما اتصل بي يوسف قطيط، ليخبرني بأنه سيتجه، ومجموعة من أتباعه من أعضاء النقابة، مع مجموعات أخرى ــ أسماهم نشطاء حقوقيين، ومعارضين ــ للتظاهر أمام مقر المحكمة، حيث ستعقد أولى جلسات محاكمة محمد، ومن معه. دعاني لمرافقته، فلم أبد حماسة للأمر، وكذلك لم أرفض. كنت أقف في منطقة حيرة، يكاد لونها الرمادي يزهق روحي. يكبلني كذلك شيء من الإحساس بالذنب، لإنني ما زلت أفكر في عرض محمد عطوة، ولم أرفضه قاطعًا أمام نفسي، المتقلبة، كافة خطوط الرجعة.

لم أحدث أحدًا بما كان من أمر زيارتي له في السجن. حتى يوسف قطيط، الذي ساعدني في الحصول على تصريح الزيارة، باتصالات لم أدر عنها شيئًا، كذبت عليه عندما حاول أن يطفئ دهشة تملكته بدوره من إلحاح محمد للقائي. عبد الرحمن كذلك، تملكته الدهشة، خاصة إنه لم يعلم بأمر تلك الزيارة إلا بعد عودتي منها، وكذلك لم

أخبره بما دار بها. مازال إصراري على حمل هـذا الثقـل وحـدي يضايقني، فهو يبقي الباب أمامي مفتوحًا مغريًا بالتجربة. حتى عندما صحت في محمد:

ـــ أتظنني حقًا من هذا النوع؟

لم تكن نابعة من غضب حقيقي ملموس. ولهذا صدقت مبرراتـه، وأخذهّا كمسلمات صادرة عن شخص لا ينطق عن الهوى!

ـــ صدقني أنا لم أقصد أبدًا ما يجول بذهنك.. نحن لن نـستأجر قلمك، أو نكتري قريحتك، وإن كان هذا مباحًا كسلاح في معركتنا ضد الفساد، فالحكومة هي من ابتدعت هذه اللعبـة. ولكـنني مـا قصدتك، سوى لإنني أعرفك لست من هذا النوع. أنا فقط أطلـب منك أن تقف مع الحق، بدلاً من أن تستسلم لحالة الضيق تلك.. بدلاً من أن تسبح مع عبد الرحمن في تياره، وتعيش معه في صفاء مزيف، لن يلبث أن ينهدم على رأسه. كن فاعلاً.. أنا أمامك.. هل تظـنني وصوليا أو سلطويا؟

أجبته بما لم يخل من رائحة نفاق..

ـــ كلا يا محمد.. فأنا أعرفك جيدًا.. ولكنني أظنك تعمل مع من هم وصوليون وسلطويون بالفعل، وأنا لا أجد تفسيرًا لهذا..

هز رأسه، معلنًا سخطه..

ـــ لا تكن من هذا النوع أرجوك.. أولئك الـذين يظنـون في أنفسهم

الصواب دائمًا، وفي كل من يختلف معهم، الزيف والنفاق. وكأنه محرم على أي شخص أن يعتنق فكرًا عن قناعة سواهم! أنت لا تتفق مع فكر الجماعة، هذا من حقك. ولكنه لا يعني أن كل المصريين يستحيل أن يتفقوا مع فكرها، فيكون من يفعل، مجرد منافق يسعى للسلطة. أنا مقتنع بهم.. متفق معهم.. أسير على دربهم.. وهذا من حقي.

لم أجد ما أقوله سوى:

ـ هو كذلك..

ـ إذًا.. الأمر ليس كما تتصور.. أنا أطلب منك كصديق، أن تأخذ من تجربة صديقك ما يستحق أن يكتب. انسَ إنني إخواني، وخذني كمثال لشخص عانى الأمرين لمجرد إنه خالف فكر السلطة السائدة.

تقطع عليّ زوجتي فيض الذكريات، وقد دخلت حجرة النوم..

ـ ظننتك تكتب..

أجبتها من حيث استرخى جسدي فوق الفراش..

ـ أليس من حقي أن أشرد قليلاً..

هزت رأسها، وقالت بآلية..

ـ اعذرني لمقاطعتك.. سآخذ كتبي.

حملت كتب اللغة الانجليزية، من حيث وضعتها فوق الكومود المجاور لجانبها من الفراش، وغادرت.

زوجتي لم تعلم شيئًا عن زيارتي لصديقي بالسجن، فهي ما كانت لتفهم شيئًا كهذا، وبالتأكيد كانت لتتفاعل مع الحدث بهستيريتها المعهودة، التي تجعلني دائمًا أندم كلما أشركتها فيما يدور برأسي.

أعود إلى شرودي، فيقاطعني الهاتف هذه المرة.. كان يوسف قطيط هو المتحدث، يذكرني بأن جلسة المحاكمة موعدها صباح الغد، وإنه يتمنى حضوري. لم أقطع له وعدًا، وإن كنت قررت أن أخبره بما عرفته..

ـــ محمد عطوة فعل ما هو متهم بفعله.

ـــ ماذا تقصد؟

ـــ شركته تأسست بالفعل بأموال الجماعة، التي يجهل هو نفسه مصدرها، والنسبة الأكبر من أرباحها، تذهب لتمويل أنشطتها.

أجابني الصمت المطبق لفترة ليست بوجيزة، قبل أن يقول:

ـــ كيف عرفت؟

ـــ هو أخبرني في لقائنا بالسجن.

ـــ ولماذا لم يخبرني أنا، أو أيا من محاميه؟

ـــ لا علم لي.

لم أخبره بأن محمد يطلعني على هذه الأسرار، آملاً أن تتقاطع مصالحنا، فأصير منهم بشكل أو بآخر..

ـــ على كلٍ، هذا لا يغير من موقفي شيئًا..

ـ كيف يا أستاذي؟

ـ ما زالت القضية برمتها خلافا سياسيا.. محمد عطوة، ومن معه، وضعت على عواتقهم تهم تضعهم في مصاف الخونة. قلب نظام الحكم بالتعاون مع جهات أجنبية، الاستيلاء على السلطة بالقوة، العبث بأمن البلاد، كلها تعبيرات وردت في مذكرة الاتهام. هل تعتقد إن صديق عمرك، ينطبق عليه وصف الخيانة؟

ـ كلا بالطبع.

ـ هو ظلم واقع في حقه إذًا، فهو ليس أكثر من شخص يسعى لمصلحة ـ يعتقدها ـ لبلاده، ويجب أن نعينه على رفع هذا الظلم.

حركت كلمات يوسف قطيط مؤشر البوصلة درجات في الاتجاه الذي أخشى الذهاب إليه. ربما محمد عطوة مظلوم فعلاً، وليس الدفاع عنه بجريمة، أو بيعًا للرأس.. ووجدتني أفكر في مصير رواية أكتبها ـ ولو بالتلميح ـ تعاطفًا مع الإخوان المسلمين، وما إذا كانت ستجد آذانًا، أو حتى فرصة للنشر.. فأذكّر نفسي أن كلمات محمد كانت تحمل من الثقة الكثير!

ـ أنا لا أعرف إن كنت سألقاك قريبًا أم لا، ولكن الواضح في المشهد الآن، أن حكمًا قاسيًا ينتظرني. وأنا كنت أفكر منذ فترة أن أحدثك عن هذا الاقتراح، تحديدًا منذ أن شكوت لي حالات ضيق تنتابك، وجفافًا يصيب قريحتك لأيام.

ابتسمت لكلماته..

ـ أنت تسميه اقتراحًا؟

ــ بالطبع.. أنا حتى لا أجرؤ على تسميته طلبًا. فأنا أعــرف إن الأدب لا يكتب حسب الطلب. خاصة وأنا أعرفك كاتبًا مبدعًا حر الرأي.

ساد الصمت بيننا لفترة، بعد سجالات حوارية، حــاول فيهــا جاهدًا أن يغريني لكتابة رواية تتناول، بشكل ما، ما أصاب حياته من صعوبات، لكونه رجلاً شريفًا، يحمل فكرًا معارضًا! ولكنه كان يحمل كارت إغراء أقوى مما انتظرت.

ــ نحن في الجماعة نفكر منذ فترة في دعم الأدب المحترم، والأقلام الشريفة. هناك مسابقة ستنطلق هذا العام في دولة خليجية، بجــوائز مالية مجزية.

صمت.. ليثبت في ذهني اللهجة الخاصة التي سينطق بها التالي من الكلمات..

ــ وأنا واثق إن جائزتها ستذهب لعمل يتناول الوضع الــسياسي الراهن في مصر بشكل شريف ومحترم.

ببساطة تبخر من ذهني خيال طارئ، رأيتني فيه أسبه، وأرحل بعد أن أرميه بعبارة إباء رنانة. إلا إنني قلت بعد فترة صمت:

ــ لقد كتبت قصة مستوحاة مما حدث معك.

أشرق وجهه..

ــ عظيم! هذا شيء رائع.

ثم أضاف بعد صمت

ـــ أتود أن تنشرها؟

مازحته..

ـــ لا تقل لي إنك تنوي نشرها في مجلة الحائط بالسجن!

ضحك مجاملة..

ـــ سأعطيك رقم هاتف رئيس تحرير واحدة من أقوى الجرائد اليومية المستقلة. أرسل له قصتك، وسينشرها فورًا.

ـــ بهذه البساطة؟!

ـــ وبكثير من الحفاوة كذلك. أنت كاتب كبير، فلا تقلل من شأن موهبتك.

تأملت وجهه، فرأيت فيه لأول مرة، محمد عطوة، الناشط السياسي المعارض. لو حدث هذا منذ بضعة أيام، لتذكرت بكل الخير كلمات عبد الرحمن مصدقًا.. لولا أن تاه عبد الرحمن بدوره..

* * *

صباح اليوم التالي كنت أقف تحت شمس حارقة، وسط جمع من المئات، أمام متاريس حديدية، وحاجز بشري من أجساد جنود الأمن المركزي، نصبت أمامنا على بعد مئة متر من مبنى المحكمة. ولكن هذا لم يقلل من إثارة الأجواء، مع الكثير من الهتاف، والعبارات الرنانة التي تنسكب من أفواه أشخاص شاهدتهم كثيرًا في التليفزيون، وإن كنت لا أعرف أسماءهم.

أتساءل عن الذي دفعني للمجيء.. فأجيبني، بأن الأمر لا يعدو كونه حلقة من حلقات السلسلة التي تطوقني. أنا ما جئت إلا لتكتمل حلقات ضيقي وحيرتي، عساني أجد عندها الفرج. ربما إذا ما ألقيت بنفسي في خضم الأحداث، أجد ما يشجعني فأقدم، أو ينفرني فأحجم. ربما أعثر — ولو لمرة — على دليل ينبئني بمصيري.

لم تكن حماستي للموقف تساوي ولو نصف حماسة المحيطين بي. اكتفيت بالمشاهدة، فلم أشارك في هتافات، أو خطب حماسية، أو مناوشة ضباط الشرطة المحيطين بنا من كل جانب، معتبرًا إنني أمر بتجربة جديدة مفيدة لي ككاتب، يهمه في المقام الأول تحصيل الخبرات.

انشغلت لفترة بمتابعة مراسلي القنوات الفضائية، يركضون هنا وهناك أمام حاملي الكاميرات، يختطفون لقاءات سريعة مع أهم المتظاهرين، وأغلبهم — كما عرفت — من قيادي الجماعة. لم يخرجني من حالة المراقبة، ويدفعني للتفاعل مع الحدث، سوى كف رقيق وضع على كتفي. أجفلت، فرأيت صاحبة الكف، فتاة رقيقة ضئيلة الجسد، تحمل ميكروفونًا..

— ألست الروائي صاحب الرواية الفائزة في مسابقة ..... ؟

— بلى.

عرفتها باسمي، الذي من الواضح إنها كانت تجهله، فرسمت ابتسامة مهنية..

ـــ حضرتك هنا للتضامن مع المتهمين؟

ـــ أحد هؤلاء المتهمين، صديق عمري..

اتسعت ابتسامتها أكثر، وطلبت مني حوارًا قصيرًا لقناتها التليفزيونية، فوافقت..

* * *

كانت زوجتي في حالة ضيق شديدة، وبدا من تقلص وجهها، واصطباغه باللون الأحمر، إنها تتعرض لحالة غزو من غضب هستيري تحاول كبته. هي بالتأكيد تظن الآن إنني ارتكبت جرمًا بحق نفسي، وبحق الأسرة كلها ربما. فكانت أجواء المترل مشحونة. ولتفريغ شيء من هذا الشحن، لم أعترض على العنف البالغ الذي استخدمته زوجتي مع وائل عقابًا على فشله المتكرر في كتابة حرف الـ (R) بشكل يرضيها. المشكلة إن زوجتي لم تعرف شيئًا عن موضوع محمد عطوة سوى بعد أن شاهدت التقرير الإخباري في تلك القناة، متضمنًا لقاءً قصيرًا معي. عندها فقط عرفت إلى أين توجهت في وقت مبكر من نهار اليوم.

تركتها تفرغ في الطفل توترها ـــ فهي بالتأكيد الآن تظن مباحث أمن الدولة في طريقها إلى بيتنا ـــ وخرجت إلى الشرفة مقتنصًا شيء من العزلة.

شردت بعيدًا عن المكان.. غادرت ضجيج الشارع، وقبح المباني، وضغط اللافتة الإعلانية على روحي. أستعيد تألقي على شاشة

التليفزيون.. كان بمظهري شيء من الجاذبية.. ملامحي المرسومة بالغضب، ولفتات الحماسة من جسدي، وأصوات الثائرين حولي. والأجمل، تلك الإشارة التعريفية التي ظهرت على الشاشة مع صورتي، عليها اسمي مصحوبًا بتعريف (الروائي الكبير)! أدار كل هذا رأسي بشكل ما. المذيعة تسألني:

ـ ولكنك غير معروف كناشط إخواني، فلما كل هذا الغضب؟

فأجيبها بلا تفكير:

ـ الأمر لا يحتاجك (إخوانيًا) ليستفزك.. يكفي أن تكون إنسانًا مستقلاً، وصاحب رأي..!

مقدم البرنامج يعلق على تلك الجملة بأنها تلخص آراء الكثير من المعارضين المتعاطفين مع المتهمين. ويقدم للمشاهدين تعريفًا قصيرًا بي، يشير فيه إلى روايتي الوحيدة بكلمات الإشادة.

تتنازعني مشاعري.. هناك بجانب الحيرة، كثير من السعادة. فقد حصلت على دعاية جيدة لاسمي، ولكتاباتي من وراء هذا الأمر. دعاية لم تكفلها لي المجلات الأدبية، أو القناة الثقافية الحكومية، التي لا يشاهدها أحد، ولا حتى المثقفون. وهي السعادة التي انسكبت بدورها في آتون يغلي في عقلي.. فالأمر يزداد صعوبة، والإغراء يزداد قوة..!

* * *

7

أنا كرونوس..

لم أتغير..

فما فعلته..

كان مجرد جزء من مخططي..

وإذا ما انتصرت..

وحققت مسعاي..

فإنني سأعود بالتأكيد..

لتعويض أصحاب الدار..

بأضعاف ما أخذت منهم.

أنا كرونوس..

أقسم إنني لم أتغير..

برغم شيء من المتعة..

تسلل إلى روحي..

وأنا أهشم باب الدار..

وأقتحمه..

مهددًا قاطنيه بسيفي..

وأنتزع حلي المرأة..
من ذراعيها ورقبتها..
وعملات ذهبية..
خبأها صاحب الدار..
التاجر الثري..
في فجوة بجدار البيت..
وربما تحسست لذة..
في مقاتلة حرس القرية..
وتغلبي عليهم بسهولة..
أذهلت الناظرين..
وأجبرت من احتفظ منهم بوعيه..
على الفرار من أمام قوتي..
مذعورًا.
ولكنني لم أتغير..
لم أصبح لصًا..
فقط أنا بحاجة لتلك المسروقات.
في الليل..
أخرج إلى الخلاء..
ملفوفًا في عباءة خشنة..
تداري تفاصيل جسدي..

أحمل غنيمتي..

في جوال قماشي..

أمارس الصلوات..

التي تعلمتها من معاشرة اللصوص..

وأنتظر أن يهبط عليّ هرميس..

ليحمل نصيب الآلهة فيما سرقت.

لا يتأخر..

وقد وعدته في صلاتي..

بمنحه النسبة الأكبر..

لإنني لص مبتدئ..

وبحاجة إلى بركة مضاعفة!

تلامس قدماه الأرض..

فيتوقف رف أجنحته..

يتأملني..

فأدعي الخشوع..

أفتح الجوال..

أعرض محتوياته..

أمام عيني الإله النهمتين..

"غنيمة جيدة للص مبتدئ"

أبتسم..

"تلميذ نجيب لأعظم الأرباب..

هرميس..

ابن زيوس العظيم..

وحفيد أطلس الجبار..

هرميس..

الذي سرق قطيع أبقار كامل..

من الإله أبوللو..

وعمره في الدنيا..

فقط.. يوم!"

ضحك الإله متبسطًا..

"أتقارن نفسك بي أيها الفاني؟"

"وهل أجرؤ يا مولاي..

إنما أنا أتبرّك..

بعظيم أعمالك"

مد الإله يده..

عابثًا بالقطع الذهبية..

فاحصًا للحلي النسائية..

المصنوعة من الذهب..

المرصع بأثمن الأحجار..

فارتسم الجشع في عينيه..

"سأختار نصيبي من الغنيمة..

كيفما أشاء"

"مولاي..

الغنيمة كلها لك"

ينظر إلي مندهشًا..

"ألا ترغب بشيء مما جازفت لأجله؟"

ساخرًا أقول..

"جازفت؟!

مولاي..

ما هذه السرقة سوى لعبة لطفل..

بجوار ما يمكنني أن أفعله"

يبتسم الإله..

"يالها من ثقة..

أتراك مؤهل لحملها..

أم إنه الحمق..

ما يحركك..؟"

أركع أمامه..

أدفن نظراتي بتراب الأرض..

وأطلق صوتًا قويًا..

حاسمًا..

تتهدج نبراته تأدبًا..

"مولاي العظيم..

رب اللصوص..

أنا كرونوس..

اللص خارق القوى..

أضع قوتي العظيمة..

التي تعادل قوة هرقل ذاته..

وعتادي..

الذي لم ير فانٍ مثله..

تحت خدمة..

هرميس"

يضحك ملء فمه..

يسخر مني..

"أنت أيها النحيل..

محارب..

بهذه العظمة التي تصف؟!"

فجأة..

ألقي عن نفسي العباءة..

وأنتصب أمامه بكامل هيئتي..

على صدري درع..

لم يرتده بشري قط..

وفي غمدي سيف..

يقبض أرواح الخالدين..

وعلى ظهري رمح..

يصهر دروع الآلهة..

صنع هيفستيوس..

الطامع في نيل ثأره..

"ما كل هذا؟!"

"أمامك يا مولاي..

فان قادر على هزيمة إله..

بقوة خارقة..

وعتاد إلهي..

مسروق من ورشة هيفستيوس ذاته"

تراجع الإله خطوتين..

وقد وسم وجهه بالغضب..

"إلام ترمي أيها الفاني؟"

أعود إلى وضع الركوع..

"مولاي..

أنا ما قصدت إلا أن أعرض عليك قدراتي..

التي أضعها طوعًا تحت إمرتك"

يهدأ قليلاً..

"ماذا تريد تحديدًا؟"

أجيبه..

"أن تتحد قدراتي..

مع بركتك..

ودهائك العظيم..

وحمايتك..

لنقوم معًا..

بأعظم سرقة في التاريخ..

أعظم حتى من سرقة النار..

على يدي بروميثيوس"

من جديد أبدت ملامحه الجشع..

"عن أية سرقة تتحدث؟"

بسرعة أقول..

"سرقة قصور الآلهة..

في أعالي الأوليمب"

تتجمد قسمات الإله..

على وضع الذهول..

"بأي جنون تتحدث؟!"

"ليس جنونًا يا مولاي..

تخيل معي..

كل ثروات الآلهة..

متاعهم الأسطوري..

كل شيء بين يديك..

ودونما تورط منك في شيء..

فبإمكاني وحدي -

بمساعدة بسيطة منك -

أن أصنع لك المعجزات..

ثراءً لم يحققه لص قبلنا قط"

"أنت واهم أيها الفاني..

غرك شيء من قوة..

وعتاد جيد..

فذاب عقلك"

أنهض عن الأرض..

أتجه إلى صخرة عملاقة..

أرفعها حملاً خفيفًا..

"هذا لا يسمى..

(شيء من القوة).

يا مولاي"

ألقي الصخرة على امتداد ذراعي..

فتغيب في الأفق البعيد..

"حتى لوصدقت..

ما تمتلكه من قوة..

وما تدعيه في عنادك..

من قدرات أسطورية..

ما الذي يدفعني لموافقتك..

واكتساب عداوة الآلهة..

الذين هم أعمامي..

وأخوتي..

وعلى رأسهم بالطبع..

أبي؟"

"لإن هذا هو هدفك..

إن لم تكن المغامرة الجسورة..

المجازفة..

والدهاء..

الثروة..

فما هو هدفك؟

أن تصنع السرقة المثالية..

التي تفرض اسمك بين كل الأرباب..

وذكرك على ألسنة كل الفانين..

أن يقال..

إن عبد هرميس..

انتصر بمكر ودهاء ربه..

على كل الأرباب"

"وماذا عن المال؟

أم إنني سأساعدك فقط..

لأجل السيرة الحسنة؟!"

أبتسم وأقول..

"ثلاثة أرباع ما أسرقه"

سألني..

"وما المساعدة المطلوبة؟"

"أن تحملني معك..

إلى قمة الأوليمب..

وتعبر بي بسلام..

الغيمة..

وحارساتها..

ربات الفصول"

فكر الإله..

"أتريدني أن أحملك..

على التسلل..

إلى قمة الآلهة..

حيث يسكنون؟"

أقول بسرعة..

"ولا شيء أكثر من هذا..

أنا سأقوم بالباقي..

ومسؤول عن نفسي..

وعن أي شيء يحدث لي..

فقط ستقودني في طريق عودتي..

إذا ما نجحت..

وأثقلتني الغنائم..."

قاطعني..

"وإن فشلت..

وكشف أمرك..

كيف ستبرر تسللك؟"

"سأقول إن إلهًا ساعدني..

بل ودفعني دفعًا..

إلى ارتكاب تلك الحماقة..

إلهًا..

اسمه هاديس"

ابتسم هرميس..

فتابعت..

"أليس هاديس هو العدو الأول..

لآلهة الأوليمب الإثنى عشر؟

أليس هو من حاول أن يحتل..

قمة الآلهة..

بواسطة الجبابرة..

المحبوسين بباطن الأرض..

لولا أن تصدى لهم هرقل؟"

اتسعت ابتسامة الإله أكثر..

"أتريدني أن أصدق..

أنك ستبقى مخلصًا لي..

حتى وأنت على مشارف الموت..

أو ما هو أبشع..

على يدي زيوس ذاته؟"

"أجل يا مولاي..

أريدك أن تصدق..

وتقتنع..

وتضع كامل ثقتك بي..

فهذا هو مفتاح نجاحنا..

في عمل أسطوري..

سيرويه الشعراء والحكاؤون..

لسنوات وسنوات تالية..

كأعظم مغامرة عرفها الكون"

أطرق الإله مفكرًا..

في رأسه رف الجناحان..

وفي عينيه التمعت الجواهر..

الملقاة عند قدميه..

قبل أن يقول..

"وصواعق زيوس..

إنك لقنع..

أيها الفاني"

* * *

أتناول رشفة من العصير المثلج، أعيد الكوب إلى الطاولة، أتأمل عينيه المجهدتين.. اللعنة عليك يا عبد الرحمن، الآن تأتيني متحدثًا عن المبادئ التي هي أقوى من الزمن، وشعارات الماضي التي تنفث عنها غبارها، وتلقيها ـ جارحة ـ في وجهي! تأتيني بقول وفعل يخالف كل ما كنت تلح عليّ به حتى أيام معدودة مضت! وتريدني أن أوافقك، وأؤيدك! تريدني ـ ببساطة ـ أن أدير مؤشر الاستقبال على موجتك الجديدة!.. كلا يا صديقي.. أظننا الآن نقف على (التحويلة).. هنا ستفترق المصائر، وقد لا نتلاقى مرة أخرى..

أسأله:

ــ وماذا ستفعل بحياتك الآن؟

يهز رأسه..

ــ لا أعرف بعد.. ولكنني لن أعدم الحيلة..

طلب عبد الرحمن لقائي هنا، ليخبرني إنه تقدم باستقالته من الشركة حيث يعمل، اعتراضًا ــ كما كتب مسببًا الاستقالة ــ على تلاعب الحكومة بمصائر المواطنين، بالسماح ــ بإجراءات غير مسؤولة ــ بوضع صناعة حيوية واستراتيجية، تحت سيطرة العدو.

ــ لم أقدر صدقني.. حاولت كثيرًا أن أشعل بطاريات اللامبالاة.. قلت لنفسي: ها هم الآلاف حولك يعملون في الشركة، لا هم لهم سوى أكل العيش، ومستقبل الأبناء. كن واحدًا منهم، فأنت لطالما أردت هذا؛ ولكنني لم أقدر.. مستحيل أن أبقى في هذا المكان، وأكون ترسًا في ماكينة الخيانة تلك. وطالما إنني أصغر من أن أوقف شيئًا كهذا، فليكن في احتجاجي الصامت هذا شفاءً لصدري.

أحتد عليه..

ــ أي احتجاج صامت تعني؟! أن تقضي على حياتك المهنية، وتتلاعب بمستقبل أطفالك؟!

ــ أن أتلاعب بمستقبل أطفالي، أهون من أن أشارك في التلاعب بمستقبل أطفال مصر كلهم..

أطلق ضحكة ساخرة.. وأصيح، بعصبية المستميت في الدفاع عن ذاته..

ـــ أتراك هكذا أوقفت التلاعب؟! هم يتلاعبون بنا، وسيظلون يتلاعبون بنا. لم يطلبوا منا رأيًا، أو مساعدة.. وأنت، أو أنا، أو أي شخص، لا نملك الوقوف أمام هذه العجلة العملاقة، التي تدور بلا رحمة. فلنعش إذًا كما يفعل الجميع.. لماذا نجني على أبنائنا؟ لماذا نحكم على أنفسنا بالشقاء؟ الكل من حولنا إما صامت، أو مستفيد.. ليس عن قناعة، أو فساد، وإنما عن يأس.

تحفر الدهشة ملامحًا جديدة له..

ـــ أنا ما توقعت منك أن تهاجمني بهذا العنف، أو حتى تعارض قراري!

ـــ أنا لا أهاجمك، أو أعارضك.. أنا لا أقول سوى ما قضيت أنت الأعوام الأخيرة تقنعني به.

ـــ وها أنا ذا أعترف بخطئي.

أهز رأسي مبتسمًا..

ـــ وما أدراني إن هذه هي الحقيقة؟ بل وما أدراك أنت نفسك؟.. طالما إنك تغير مبادئك وفقًا لمتغيرات الظروف.

كانت كلماتي تلك، هي كلمات الفصل في هذا اللقاء.. رحلت على غضبي، غير المبرر، متوقعًا إنني لن أرى عبد الرحمن لفترة لا بأس بها قادمة..

تصفحت الجريدة، فاكتشفت أن نشر قصتي لم يكن نهاية المطاف. في عدد الأمس فقط نشرت قصتي على صفحات الجريدة، وبالحفاوة التي وعدني بها محمد عطوة، على صفحة كاملة، مقدمة بعبارات الترحاب، والثناء من رئيس تحرير الجريدة اليومية الشهيرة جدًا، المتهمة دومًا بميلها تجاه الإخوان المسلمين. واليوم جاء ذكر القصة مرتين؛ أحد كتاب الجريدة، تناولها في عاموده المخصص أساسًا لشئون السياسة، بعبارت مديح، لم تخل من مبالغة، ومجاملة نافذة الرائحة. كما أفردت الجريدة مساحة لملخص تعليقات القراء التي وضعوها على موقع الجريدة الإلكتروني، بشأن قصتي. وطبعًا كانت كلها تعليقات ترفعها إلى عنان السماء.

برغم جو النفاق الواضح في كل هذا، إلا إنه أدار رأسي. بالطبع لابد أن يفعل.. أشياء كثيرة، تحدث هذه الأيام، تدير رأسي. اليوم هاتفني رئيس تحرير الجريدة، ليسألني مازحًا عن رأيي في كرم ضيافتهم، ثم طلب مني أن أتبع قصتي بمقال للجريدة، عن مواقفي، وآرائي، من القضية المثارة حاليًا ضد الإخوان.

وافقت على الفور، قاطعًا فرصة الجريان أمام نهر أفكاري، وشكوكي، والمخاوف التي تسكبها زوجتي، على شعلة حماستي. فهي تعتبر إنني بالكتابة لهذه الجريدة، المغضوب عليها حكوميًا، أغادر جانب الحائط، وأسير مكشوفًا عاريًا في عرض الطريق، مغامرًا بكل شيء. ولكنني أشعر أن العجلة دارت، وعليّ أن أشتبك بها، لتحملني إلى أي مكان، غير هذا المكان الخانق الذي مللته.

هاتفني يوسف قطيط، ليبلغني سعيدًا بنجاح مسعاه، أخيرًا، في تنظيم مظاهرة من أعضاء نقابة المهندسين، منددين بالظلم الواقع على زملائهم. وبالطبع ترجى مشاركتي في هذه المسيرة، التي ستخرج عصر الغد من مقر النقابة. وافقت على الفور.. فأنا بالتأكيد لا أحب أن أكون صاحب مواقف ورقية.. إذا كنت سأكتب في الجرائد ـ كما سبق أن تحدثت تليفزيونيًا ـ عن موقفي من هذه القضية، فبالتأكيد يجب أن يكون موقفي هذا واضحًا جليًا على أرض الواقع. لذا أنهيت المكالمة على وعد بالتواجد غدًا.

ولكن مكالمة تلقيتها مساءً ـ ممن عرفني بنفسه كمدير مكتب القاهرة لواحدة من أكبر الفضائيات الإخبارية الخليجية ـ قلبت مخططات الغد رأسًا على عقب. أخبرني الرجل إنهم في القناة يرغبون في إذاعة لقاء معي على الهواء في نشرة أخبار الساعة الرابعة عصرًا، في تغطيتهم لأنباء المحاكمة، كممثل لصوت المثقف المصري المحايد، الذي يرفض أشكال القمع والاضطهاد. هكذا قالها الرجل، وكأنه يرسم لي مسبقًا الخط الذي يجب أن تسير عليه كلماتي وآرائي. وبنفس هذه الجراءة، لم يتردد في ذكر المبلغ الجيد، الذي سأحصل عليه في حال إجرائي لهذا اللقاء، على الرغم من إنني لم أكن بحاجة إلى هذا الإغراء المادي، فيكفيني إغراء الظهور على شاشتهم الشهيرة. لهذا وافقت بلا أي تفكير، واتصلت بيوسف قطيط معتذرًا عن الوفاء بوعدي له..

* * *

كنت سعيدًا..

لأول مرة منذ زمن، فتحت نافذة حجرة نومي ليزورها هواء الليل، بحثًا عن مزيد من نشوة تدعم، مع رشفات القهوة، حماستي إلى المزيد. فأبدع مقالاً ناريًا، أدعم به تلك الصورة البراقة التي بدأت أكونها عن ذاتي. كان الحوار التليفزيوني أكثر من جيد، وكذلك كان مقابله المادي.. كانت هناك حالة من الدعم والموافقة أتلقاها على كلماتي من مذيع النشرة ـ الذي كان يحاورني عبر القمر الصناعي من مقر القناة بالخليج ـ سهلت عليّ الأمر، وأظهرتني بمظهر الحكيم الذي ينثر الدر.. أعرف إن هذه الصورة لم ترسمها عبقرية آرائي، وإنما موافقة هذه الآراء لسياسة القناة. ولكن هذا لم يمنع حالة الانتشاء تلك من السيطرة على حواسي.

أضع على الورق كلمات الإشادة بمحمد عطوة، صديق العمر.. أسرد ما حدث معه بكلمات تقطر حرقة.. وأذيل المقالة بعبارات حكيمة تلخص رأيي- بعضها اقتبسته من أقوال ليوسف قطيط، دونما إشارة لمصدرها-.. في النهاية، قرأت المقالة معجبًا بما خطته يدي، ثم طويتها، ووضعتها في مكان ظاهر لعيني، على أن أحملها بنفسي صباح غد إلى مقر الجريدة.

في الصباح، وقبل الموعد المحدد، استيقظت على رنين هاتفي. كانت الشاشة تعلن إن المتصل هو مصطفى راتب. احتجت وقتًا قبل أن أستخرج من ذاكرتي شخصًا يحمل هذا الاسم. ولما تذكرت، سبقتني دهشتي لزر الرد بالهاتف. كان صوت الشاب يحمل شيئا من

التوتر، مع ظلال بكاء واضحة في نبراته، وكان ملخصًا، وموجزًا إلى أقصى حد..

ــ د.يوسف قطيط دخل في غيبوبة منذ الأمس..

* * *

ــ حتى لو أفاق من هذه الغيبوبة، فإن حجم التلف في المخ قد يكون قويًا.. قد يصل إلى حد الشلل.. هكذا قال لي الطبيب..

انتهى مصطفى من شرح الحالة لي.. أمامنا ــ عبر زجاج نافذة حجرة العناية المركزة ــ تمدد الرجل هامد الجسد.. حاجباه يرسمان تقطيبة خفيفة، كتلك التي تبدو عليه حين التفكير.. صوت النبضات الإلكترونية، الصادرة عن الجهاز المتصل بقلبه، يصلنا برغم عزل الزجاج البارد، فيوترني، ونحيب متقطع من الزوجة المنكفئة على صفحات مصحف مفتوح في يديها، في مجلسها بجوار باب الحجرة.

سحبت مصطفى من ذراعه مبتعدين، ووقفنا في نهاية الردهة البيضاء خانقة الرائحة نتحدث..

ــ لقد كان شخصًا رائعًا.. برغم إنني لم أعرفه لفترة طويلة، إلا إن بصمة له بدأت تظهر آثارها في حياتي.

قلت له:

ــ أنا أصلاً لم أعرف إن لك علاقة به!

ــ لقد زارني في المقهى بدوره.

تعجبت..

ــ هو لم يخبرني بشيء كهذا!

ــ هذا ما حدث.. بصراحة لم أستطع أن أقاوم حماسته، وجاذبية شخصيته. أول أمس حضرت، لأول مرة، اجتماع ناديه الأدبي، من باب التجربة.. صباح اليوم اتصلت بواحد من أعضاء النادي، استفسر منه عن شيء، فأخبرني بما حدث، فوجدتني أترك عملي، وأهرع إلى هنا.

تعجبت، عند ذكره لاجتماع النادي، كيف نسيت هذا الاجتماع الأسبوعي مساء أول أمس؟ ولماذا لم يذكرني يوسف قطيط بالموعد، وقد هاتفني يومها ليخبرني عن مظاهرة النقابة؟ أم إنه ما تخيل أن أنسى هذا الموعد الدائم؟

سألت مصطفى عن سبب ما حدث، فوجدته يجهله.

ــ عندما حضرت لم يكن هنا سوى زوجته. وقد خشيت أن أسألها عن شيء، وهي على تلك الحالة.

مكثت في المستشفى لفترة، حتى شعرت أن وجودي في المكان لا داعي له. من أول لحظة وأنا لا أقوى على احتمال رؤية الرجل على هذا الحال. ولكن شيئًا من الخجل تملكني، فأبيت أن أرحل، قبل أن أعقد ولو صلحًا مؤقتًا مع ضميري، الذي يبحث لي عن أي جزء من المسؤولية. ولكن المزعج أبى أن يصمت..

عندها وصل عبد الرحمن، وأنا أستعد للمغادرة. سعدت في البداية لإنني سبقته إلى هنا، حتى علمت إنه هنا منذ الأمس. فقط ــ كما

أخبرني ــ ذهب إلى بيته ليستريح قليلاً. ضايقني هذا بدرجة ما، قبل أن يفاجئني بسؤال..

ــ ألم تعلم بما حدث له؟

لم يكن استفهامًا هذا الذي يحمله السؤال، فسألته:

ــ أتعرف أنت؟

ــ بالطبع، فقد كنت حاضرًا لحظتها، وأنا من نقله إلى هنا.

وكأنما صعقتني الكهرباء.. أنت! أنت يا عبد الرحمن!

ــ سمعت من زملاء لي عن المظاهرة التي نادى بها الأستاذ، قررت إنها مناسبة جيدة لإعادة علاقتنا بعد انقطاع طويل، فذهبت. وجدت الموقف في قمة توتره.. قوات الأمن تحاصر النقابة، مغلقة بابها، لا تريد لأحد أن يدخلها، وهناك تهديدات صريحة بالتعامل العنيف مع أية محاولة للتجمهر خارجها. بحثت عن الأستاذ، فوجدته ــ كما توقعت ــ يخوض جدالاً حادًا مع ضابط شاب في رتبة رائد. اقتربت منه، فسمعته يصرخ بانفعال لم أعهده فيه من قبل.. "النقابة ملك لأعضائها، وليس من حقك، أو من حق أي مخلوق أن يمنعنا من دخول ممتلكاتنا.. لا دستور، ولا قانون ينص على ذلك". ولكن الضابط أبدى استهانة بكلامه، مما ضاعف من عصبية الأستاذ، وتمسكه بموقفه. فدفعه الضابط دفعة بسيطة، وكلّمه بلهجة مهينة، كان ردها أن قال له الأستاذ "أنت شاب ناقص التهذيب". فما كان من الضابط إلا أن صفعه على وجهه.

انتفض جسدي..

ــ صفعه؟!

ــ أجل ولك أن تتخيل ما حدث للأستاذ عندها. لم أملك إلا أن احتضنته، وأبعدته، حتى سيارتي. أجلسته بلا أدنى مقاومة منه.. كان صامتًا، شاخصًا إلى لا شيء، يرتجف فعليًا. كان فيما بدت كصدمة ذهول. وعندما نطق، لم يزد عن قوله "أعدني إلى بيتي". انطلقت في طريقي، وعندما وجدته يمسك رأسه متألمًا، قبل أن يفقد وعيه، أدرت عجلة القيادة، ونقلته إلى هنا.

كانت الكلمات المنسكبة من فم عبد الرحمن بحرقة لافحة، هي من أبشع ما سمعت طوال حياتي. أشعرتني الصدمة بشيء من الدوار، فجلست على مقعد استقبال وجدته بقربي في ردهة المستشفى. أهكذا تأتي النهاية يا أستاذي؟ أهكذا تأتي النهاية؟!

شعر عبد الرحمن بما يعتمل بداخلي، فربت على كتفي مواسيًا.. رفعت إليه عينين تجمعت بهما الدموع، وسألته:

ــ أتراه ظن يومًا، أن يؤول مصيره إلى هذا؟

ــ لا داعي لهذا الحديث الآن.. أرجوك.

هززت رأسي متفهمًا.. ولكن فكرة أخرى سيطرت على عقلي.. نهضت لفوري، وبكلمات متسارعة قلت:

ــ اسمع.. سأغادر الآن، وسأعود مساءً بإذن الله.

أبتعد من أمام نظراته الدهشة.. كل ما أراه أمامي الآن، هو حجرتي، وأوراقي المبعثرة أمامي.. يجب أن أعود الآن إلى روايتي.. فقد طرأت على ذهني -فجأة- نهاية أنسب وأقوى للرواية. وإن كانت أكثر دموية، وعنفًا، ولكن..

زيوس يجب أن يموت..!

* * *

8

أنا كرونوس..

هل تغيرت..؟

ربما..

فأنا لم أتخيل..

أن يكلفني الأمر كل هذا العنف..

أن تجري الدماء..

بتلك الغزارة..

على حد سيفي..

ما ظننت أبدًا..

أن تجتاحني لذة وحشية..

وعطش لتناثر قطرات الدم..

وتمزق الجلد..

وتقطع اللحم.

ما ظننت أبدًا..

أن يطربني صوت الألم..

وأستعذب الصرخات..

أنا كرونوس..

أقف على بعد خطوة واحدة..

من مقصدي..

أنا كرونوس..

قلت إنني سأغير قدري..

سأصنع مصيري..

وها أنا ذا..

على وشك أن أفعل..

* * *

رفعت ربات الفصول الغيمة..

عندما تأكدن أن القادم..

ليس سوى هرميس.

أمام عيني..

تراءت البوابة العظيمة..

التي تقود إلى القمة..

حيث قصور الآلهة الإثنى عشر..

وعرش زيوس..

اجتاز هرميس البوابة..

وهو يلقي الدعابة تلو الأخرى..

على آذان الربات..

وعندما بلغنا موضعًا آمنًا..

رفع عني التعويذة..

التي تخفيني عن الأبصار.

من موضعي..

رأيت القمة المهدة..

ترتفع فوقنا بمسافة..

يقطعها طريق بين الصخور..

قال هرميس..

"ستصعد وحدك من هنا..

ها هو الطريق واضح أمامك..

وعليك الباقي"

قالها وارتفع في الهواء..

مبتعدًا عن ناظري.

كان ظلام الليل يخيم على المكان..

وكنت أهتدي..

بظلال أنوار ساطعة على القمة.

وضعت قدمي على أول الطريق..

وبدأت أصعد..

عندما اخترق الفضاء فوق رأسي..

ذلك النسر..

ضرب الهواء بجناحيه..

أحدث صوتًا مدويًا..

قبل أن يحط أمامي..

على صخرة عالية..

ليستطيل جسده..

ويختفي عنه الريش..

ويتحول إلى هيئة أعرفها..

"آرس؟!"

هكذا هتفت..

"أتظن بمقدورك أن تتلاعب بي..

أيها الحقير؟"

عندما يرتسم الغضب..

على وجه الإله الأكثر دموية..

بين سائر الآلهة..

فإن الوضع يكون مخيفًا..

لذا ارتجفت..

فبكل القوة التي أملكها..

والعتاد الذي أحمله..

أفتقد لأهم شيء..

الجسارة..

فإن غابت عني..
لن تشفع لي قوة..
أو سلاح..
وستكون نهايتي مؤكدة.
قد أكون اختبرت قوتي..
في قتال البشر..
وفي حمل الصخور..
ولكن.. مقاتلة إله..
شيء يختلف..
إلا أن يفرض عليّ الأمر..
وينتقل لجامي..
إلى يد غريزة البقاء..
تقودني - عفويًا -
إلى ما به النجاة.
تمامًا كما حدث..
كان الإله الغاضب يتقدم مني..
يبسط يده نحوي متوعدًا..
إن لمسني..
فبمقدوره أن يستعيد القوة..
التي منحني إياها..

"أنا أتابعك..

وأرسل خلفك عيوني..

منذ أن غادرتني.

عندما علمت إنك تسللت..

إلى ورشة هيفستيوس..

استبشرت بك..

وظننتك تسعى لتنفيذ اتفاقنا..

ولكن هيفستيوس لم يمس..

ثم علمت بلقائك بأخي الأحمق..

هرميس..

وعلمت إنه حملك معه..

فأدركت إنك تجرأت..

وخدعتني أيها الفاني"

كنت أتراجع أمام تقدمه الحثيث..

أنتظر منه انقضاضة..

في أية لحظة..

وعندما هجم تسبقه يده المبسوطة..

تسعى إلى لمسة واحدة..

وجدتني بسرعة غريزية..

أستل سيفي..

ألوح به في الهواء..

فتسقط عند قدمي..

يد الإله المبتورة..

وتتناثر دماؤه المقدسة..

على وجهي.

يتراجع صارخًا من الألم..

والذهول يغمر وجهه..

أي إله حرب هذا..

الذي يصرخ متألما كالنساء؟!

قبل أن يفيق من ذهوله..

أعاجله برمية من رمحي..

تخترق درعه البرونزي..

وتستقر في قلبه..

فيسقط أرضًا..

ويصرخ..

حتى يرتج لصرخته الجبل..

الآن صرت أنا المتحكم..

تذوقت طعم الدم على شفتي..

فعرفت إنني أقدر..

أريد الآن المزيد..

من هذا السائل الأحمر..

وأدرك..

إن شيئا من العنف لن يضيرني.

أقف على رأس الإله..

الذي حالت قوة بدنه..

دون أن يقتله الرمح..

يتأوه..

"مستحيل"

فأصرخ به..

"المستحيل أن تحيا مرة أخرى..

أيها الطاووس"

ثم أجتز بحد سيفي..

رقبته المباركة..

* * *

كان كل همي..

أن أتم صعودي سريعًا..

قبل أن يهبط سكان العلياء..

باحثين عن مصدر الصرخات.

بالفعل..

بلغت القمة المهدة..

المرصوفة برخام لامع..
لأجد اضطرابات تعم المكان..
أختبئ خلف جدار مرمري..
يلف أقرب القصور إلى الطريق .
ألمح حشدًا يتجه نحو الصخور..
حيث الإله المقتول..
إماء حسناوات..
وطواويس..
وخيول وحيدة القرن..
وقناطير..
أدور حول الجدار مبتعدًا..
ملتصقًا بالجدران..
مندسًا في ظلال الأركان..
حتى أصل إلى طريق ضيق..
تبدو عند نهايته ساحة واسعة..
أتقدم..
فأرى الجمال الذي ما حلمت بوجوده.
أرض الساحة من مرمر أزرق..
لم أر له شبيهًا..
تتوسطها بركة فضية الحواف..

تسبح فيها حوريات البحر..

يصدحن بغناء عذب..

وتتقافز حولهن..

أسماك زاهية الألوان..

ويعلو البركة تمثال ذهبي..

لرب الآلهة..

لم أر في مثل حجمه من قبل..

وجهه مكسو بالإجلال..

والسماحة..

والوقار..

زيوس كما يراه الآلهة..

لا كما يراه الفانون..

في بهو معبد أوليمبيا.

في نهاية الساحة..

كانت بوابة عالية..

مرفوعة عن الأرض..

على سلالم رخامية..

لقصر لا يمكن إلا أن يكون..

قصر زيوس ذاته..

وتأكد لي هذا..

من مرأى الوعاءين الكبيرين..

على جانبي الباب..

أحدهما يحوي كل خير الدنيا..

أحدهما هو ما أبغي..

هنا تنتهي رحلتي..

أو تكاد..

"من أنت؟"

ألتفت مذعورًا..

يفاجئني ظهور ذلك الملتحي..

مفتول العضلات..

من بين الظلال..

"أنت لست من سكان هذه المدينة..

أنت فان"

قبل أن أتحرك..

يقبض على رقبتي..

بقبضة حديدية..

ويتقلص وجهه غضبًا..

"تكلم..

وإلا تذوقت لكمة..

من قبضة..

هرقل.."

* * *

هرقل ذاته..

نصف الإله..

حامي الأوليمب..

هرقل الذي كان يومًا..

يسعى بيننا ـ نحن الفانون ـ

والآن صار منهم..

في عينيه تعاليهم..

وفي صوته غطرستهم..

هرقل..

الذي طالما تغنينا بأمجاده..

وأعماله العظيمة..

كواحد منا..

رفع إلى مصاف الآلهة.

هرقل..

لم يعد منا..

بل هو أصلاً..

لم يكن منا.

كما فعلت مع آرس..

وبنفس الحركة المفاجئة..

أستل سيفي..

وأغمده في بطنه..

تجحظ عيناه غضبًا..

لا ألمًا..

وبيده يطيح بي..

فألقى بعنف..

على الأرض المرمرية..

في وسط الساحة تمامًا..

ينقض علي..

أعزلاً من أي سلاح..

فأتلقاه برمية رمح..

تجاور طعنة السيف..

توقفه عن التقدم السريع..

ولكن لا تعطل غضبته..

بشكل لا أتوقعه..

يواصل انقضاضته.

على ذهولي لم أتحرك..

أو أبد ردة فعل..

حتى بلغ مسقطي..

وأطاح بقدمه في بطني..

في ركلة طار لها جسدي..

ليستقر في البركة..

دفعت جسدي إلى سطح الماء..

مسحت البلل عن عيني..

فتحتهما..

كان هرقل يتقدم ببطء..

مشغول بنزع الرمح من بطنه..

هالني إصراره..

بسرعة ضربت الماء..

سابحًا نحو الحافة الفضية للبركة..

ولكن حورية البحر تلك..

تعلقت برقبتي..

بقوة لا تناسب مظهرها الرقيق..

كانت تصرخ في أذني..

بصوت مزعج..

أخرجني عن تركيزي..

وأفقدني القدرة على الخلاص منها..

كانت تسبح بي - مكبلاً بذراعيها -

نحو حافة البركة..

حيث ينتظر هرقل..

مشدود الجسد..

متحفزًا..

ما أن تقودني إليه الحورية..

حتى يتلقاني بلكمة قوية..

لولا تشبث حورية البحر بي..

لأطارتني اللكمة إلى الأفق..

حفزني الألم..

فتضاعف نشاطي..

كان يتأهب للكمة الثانية..

عندما دفعت باطن قدمي..

في الحافة الداخلية للعركة..

وأخذت منها قوة..

لدفع كامل جسدي للوراء..

بشكل مفاجئ..

فانفلت جسدي جزئيًا..

من قيد الذراعين..

بشكل كان كافيًا..

لأن أبعد وجهي..

عن طريق اللكمة الجديدة..

فتتلقاها بدلاً مني الحورية..

صرخت بصوت رفيع يؤذي الأذن..

وحررت جسدي رغمًا عنها..

فقفزت عابرًا الحافة..

إلى الأرض الصلبة من جديد..

هرع إليّ هرقل..

بركلة جديدة في بطني..

تحملتها بقوتي..

مجبرًا جسدي على الثبات..

فلم أتزحزح لأكثر من مترين فقط!

حاولت أن أكر عليه..

فتلقاني بلكمة..

تفاديتها..

فأصابت كتفي..

وأسقطتني..

شعرت بمدى تفوقه علي..

برغم التكافوء - المفترض -

لقوتينا..

أمطرني بركلات في صدري..

كان يصيح كمجنون..

"من أنت يا قمامة الفانين..

لتصمد أمام هرقل العظيم..

كل هذا الوقت؟!"

بدأت أرى الحشود..

تحيط بحدود الساحة..

وإله.. أو اثنين..

خرجا من قصريهما..

لمتابعة ما يحدث.

أمام عنف ركلاته..

دار جسدي..

واجهت أنظاري البوابة العظيمة..

لقصر زيوس..

"أهنا تتحطم أحلامك يا كرونوس؟!

أبعد أن بلغت هذا القرب؟!"

كان ألم صدري..

يخالط مرارة شعور بالهزيمة..

ولكن في الثانية التالية..

كنت أحتضن ساق هرقل..

أمنعها من الارتداد..

بعد آخر ركلاتها..

بقوة قمت من مرقدي..

فاختل توازنه..

ليأخذ دوره في السقوط..

عندها وجدتني أقف بجوار..

سيفي المستقر أرضًا..

حيث أسقطتني..

رمية هرقل الأولى..

هب هرقل على قدميه بسرعة..

زمجر غضبًا..

تقدم مني..

ولكنه ـ أو أي من الناظرين ـ

لم يدرك سر تلك السرعة الرهيبة..

التي أنتجت..

ذلك الشق الطويل..

في عنقه..

وقبل أن يغادره الذهول..

كانت الضربة التالية..

تطيح برأسه..

لتغادره الروح أولاً..

لم تكن أمامي فرصة..

للفرح بنصري الأسطوري..

أو حتى لالتقاط أنفاسي..

صوتٌ مألوفٌ..

سمعته يصرخ..

"ليقتله أحدكم..

ذلك المتسلل..

ذلك القاتل..

من جرؤ على تدنيس..

قدس الآلهة"

كان هرميس هو الهاتف..

يبغي الخلاص مني..

وقد رأى بعينيه..

انكشاف تسللي..

ومخاوف انكشاف أمره..

"سدد إليه سهمك يا أبوللو..

أرده قتيلاً"

* * *

نظرت إلى درجات سلم..

هابطة من باب قصر مفتوح..

حيث انتصب أبوللو..

مسددًا إلي سهمًا مشدودًا..

إلى قوسه.

إن أدرك قوة دروعي..

فقد يسدده إلى رأسي..

إنها النهاية يا كرونوس..

سهم من إله الرماية ذاته..

لن يخطئ طريقه..

إلا بمعجزة.

كأن ترتج الساحة فجأة..

بصوت لم أسمع لهديره..

مثيلاً من قبل..

ولا حتى في رعود العواصف العاتيات..

"توقفوا"

نظرت إلى حيث صدر الصوت..

يسبق التوقع عيني..

هناك أمام باب قصره..

وقف يتأمل الدماء..

دماء ابنه هرقل..

ارتجف قلبي بعنف..

انا الذي جئت متحديًا..

ارتجفت أمام سطوته..

وعظمته..

وكبره.

صمت كل من بالساحة..

في انتظار القادم من كلماته..

حتى أنا صمتّ..

تجمدت..

في انتظار ما سيصنعه لي..

من قدر..

رب الأرباب..

زيوس..

* * *

لم أعد إلى المستشفى هذا المساء.. ولا أي مساء قريب. تناولت غدائي يومها، واجمًا حزينًا.. حتى زوجتي صمتت تمامًا، احترامًا لحزني، عن إدراك منها لمكانة يوسف قطيط في قلبي.

بعد الغداء، اتصل بي رئيس تحرير الجريدة، يستفسر عن تـــأخري في إرسال المقال، فأوحى لي اتصاله بفكرة.. سألته أن يكونا مقـــالين بدلاً من واحد، فوافق مرحبًا، على وعد بأن يرسل الليلة مساعدًا له ليأخذ مني المقالين. أمليته عنوان بيتي شاكرًا، ثم انطلقت إلى حجـــرة نومي.. نثرت أمامي أوراقًا بيضاء، وبحبر أسود ــ ألاحظ كآبته للمرة الأولى ــ بدأت أخط مقالاً عن يوسف قطيط.. كيـــف بـــدأ، وإلام انتهى.

كانت كلماتي تتدفق من شعوري مباشرة، حزينة، مريرة.. أنهيت المقال مقاومًا غصة في حلقي، بعدها شعرت بشيء من الراحة، وبدأ صوت ضميري يخفت.. سعدت لهذا، وقـــررت أن أنـــام قلـــيلاً. لم أستيقظ إلا عندما حضر شاب مهذب من الجريدة لاستلام المقـــالين. أعطيته المقال الجديد، ثم اكتشفت إنني، كالعادة، نسيت موضع المقال الأول. أنا واثق إنني وضعته في مكان ظاهر، ليسهل عليّ إيجـــاده.. بحثت قليلاً، فوجدته فوق مكتب والدي. أعطيته للشاب، الذي أخذ الورقتين، ورحل شاكرًا.

فوجئت بعد رحيله بتأخر الوقت، فتكاسلت عـــن الـــذهاب إلى المستشفى. حاولت أن أنهي روايتي. أعرف إنه لم يتبق لها الكـــثير.. ولكن القلم أبى أن يطاوعني.

صباح اليوم التالي، حاولت أن أخط بها ولو بضعة كلمات قبل أن أذهب إلى المستشفى، ولكن قريحتي عاندتني مرة أخرى. أشعرني هذا بحالة من الخمول، لم يخرجني منها إلا اتصال هاتفي بالغ الأهمية. كان المتحدث هو مدير مكتب نفس القناة الإخبارية الخليجية، هذه المـــرة

كان يحمل لي عرضًا أكثر سحرًا.. برنامجا أسبوعيا شهيرا جدًا، يذاع على الهواء، يناقش القضايا الهامة، بإحداث مواجهة بين اثنين يعبران عن طرفي القضية. هم يريدونني ضيفًا على البرنامج الأسبوع المقبل، لأتواجه مع صحفي مصري، محسوب على الحكومة، فيما يخص قضية محمد عطوة وزملائه.. بالطبع يتضمن هذا العرض، كافة تكاليف السفر، والإقامة في البلد الخليجي ليومين، بالإضافة إلى مكافأة جيدة بالدولار الأمريكي.. اقترح الرجل أن يترك لي يومًا للتفكير، فقلت له:

ــ لا داعي.. أنا موافق.

وطوال اليوم، انغمست في حالة من النشوة، أنستني زيارة يوسف قطيط، أو حتى السؤال عنه هاتفيًا. أخبرت زوجتي بأمر البرنامج، فأبدت قلقًا وتخوفًا كعادتها، سرعان ما انقلبا إلى سعادة وتشجيع، عند علمها بمبلغ المكافأة. ولكن في غمار حالة التخوف الأولى، سألتني:

ــ ولماذا أنت؟ لماذا لا يستعينون، بعضو في جماعة الإخوان، طالما إنها مواجهة حول صراع بينهم وبين الحكومة؟..

صدمني سؤالها المنطقي جدًا.. وطوال اليوم أعملت عقلي في البحث عن إجابة ما، بلا جدوى..

مساءً، اتصل بي عبد الرحمن معاتبًا، فازددت ضيقًا، ونفورًا منه. هذا المجنون، يعاتبني أنا على عدم زيارتي ليوسف قطيط! هذا الذي طالما تطاول عليه سرًا، ووصفه بالأحمق! برغم هذا وجدتني ــ في حالة اصطناع مشاعر الصداقة ــ أخبره بأمر البرنامج، وألقي عليه استفسار زوجتي.

وبالفعل كان له رأيٌ في الأمر..

ـــ لأنهم لا يريدون للأمر أن يظهر كصراع سلطة بين الحكومة، والإخوان وإنما كصراع حريات، بين حكومة قمع من جهة، ومثقفين، وناشطين ليبراليين، من جهة أخرى..

لم أعلق على رأيه، رافضًا بطفولية إعطاءه أهمية، ولكن عقلي تعلق به كتفسير مقنع..

ـــ ما رأيك؟

سألني مصرًا على جرِّي إلى مناقشة الأمر..

ـــ ربما يكون رأيك صحيحًا..

ـــ وإن كان كذلك، هل ستشارك في البرنامج؟

ضاعف سؤاله من حنقي عليه، وشعرت بكراهية تتولد من رحم هذا الاستفزاز..

ـــ وإن سمعتها من مقدم البرنامج صريحة، فلن يمنعني شيء من السير قدمًا بعد الآن..

* * *

9

واصلت ــ بالفعل ــ السير قدمًا..

ــ لا صعوبة مع بذل الجهد.. ولا مستحيل مع الإصرار..

هكذا كانت آخر كلماتي، في آخر لقاء تليفزيوني لي، ردًا على طلب مقدمة البرنامج لنصيحة أقدمها لشباب الأدباء.. هذه المرة، لم يكن البرنامج بشأن السياسة، وإنما هو برنامج حواري عام، استضافني كواحد من أهم الكتاب الصاعدين في الأعوام الأخيرة.

انتهى البرنامج، فحملت زوجتي وائل على النوم، بعد أن أصر على السهر لمشاهدة والده في التليفزيون. طبع الطفل قبلة على جبيني، وغادر حجرة المعيشة إلى حجرة نومه. أغراني هدوء الليلة الشتوية، بمواصلة العمل على تنظيم مكتبي.

قمت إلى حجرة المكتب.. مازالت غالبية كتبي، وأوراقي في الصناديق، ومساحة كبيرة من المكتبة خالية. غدًا سأذهب إلى سوق الكتب القديمة، سأحمل سيارتي الجديدة بكمية كبيرة من الكتب. ليس المهم أن أقرأها، المهم أن أملأ هذه المكتبة التي تحتل كامل الجدار، بكتب بادية القدم، كدليل على امتلاكي لها منذ زمن!

أتأمل مكتب والدي، الذي بات يحتل المكان الذي أراده له رحمه الله، في صدارة حجرة مكتبي، في الشقة الجديدة، التي انتقلت إليها مؤخرًا. هنا لم يعد المكتب بنفس سوء المظهر الذي كان عليه من قبل.

وكأن ضيق الشقة، ومعها ضيق روحي، هما ما كانا يشوهان مظهره. أو ربما هي روح المصالحة مع والدي، التي تلبستني مؤخرًا، هي ما جعلتني أرى المكتب جميلاً، متقن الصنع، حتى إنني أزين الجدار خلفه، بصورة لوالدي، في برواز أنيق.

أتأملها قليلاً، فأجد فيها فكرة لمقال بعد غد.. أجلس إلى المكتب، أخرج أوراقي، وأبدأ في كتابة مقال بعنوان (أبي). أتحدث فيه عن والدي، الرجل الذي عاش ومات على المبدأ. لم يخن يومًا معتقداته، أو يخرج عن نطاق قناعاته. هكذا رباني، وأنشأني طفلاً، ومراهقًا، وشابًا. وختمت المقال العاطفي الحار — وقد تجاهلت بالطبع أن أذكر أي شيء عن طبيعة تلك المعتقدات، أو القناعات!

ثم عدت مرة أخرى إلى عملية التنظيم، لولا أن ناداني هاتفي الجديد: على شاشته تألق اسم ذلك الصحفي الكبير، الذي يشاركني صداقة في طور النمو، هنأني على تألقي في برنامج الليلة، وعلى أناقة حلتي. ومازحني بشأن نظراتي لمقدمة البرنامج الجميلة!

أنهيت مكالمته، وأغلقت الهاتف، رافضًا استقبال المزيد من الإزعاج. ذلك الهاتف الذي شهد من المتغيرات، بقدر ما شاهدت، فرحلت عن قائمته أسماء، ما كنت أظنها ترحل. وحلت محلها أسماء أخرى، ما كنت أحلم يومًا بمقابلة أصحابها، ولو مصادفة.

نفس الانقلاب في المسيرة، والشذوذ عن المصائر المتوقعة.. تمامًا كما حدث معي، أنا الروائي الشهير، والكاتب الناجح.

روايتي الثانية لاقت نجاحًا، نقلت معه اسمي إلى مستوى أعلى بين الأدباء، خاصة بعد أن فزت عنها مرة أخرى بجائزة مالية كبيرة، عن مسابقة جديدة، انطلقت من دولة خليجية، بالطبع هي ذاتها المسابقة التي حدثني عنها محمد عطوة، الذي يقضي فترة عقوبة طويلة بالسجن.

تسبب فوزي هذا بحالة نشاط في مبيعات روايتي الأولى، وبدأت معه حالة من الاهتمام الحقيقي. والحق أقول، إن الرواية الأولى أفضل بكثير من الثانية، تلك التي جاءت انفعالية، مباشرة بعض الشيء، تهتم بدرجة العنف والقسوة، في انتقاد فساد الحكومة، وحال الحرية في البلد، أكثر مما تهتم بقواعد الأدب، وفنيات الكتابة. هي رواية لم أهدف بها للأدب، بقدر ما استهدفت إثارة إعجاب لجنة المسابقة، ومن يقفون وراءها في الخفاء.. وهذا ما كان. حتى إنهم طبعوا الرواية بكميات كبيرة، وقاموا بتوزيعها بشكل مكثف، في كافة بلدان الوطن العربي، فكفلت لي المزيد من النجاح السريع، فدعيت لحفلات توقيع في أكثر من دولة عربية..

لقد لاقت كذلك حفاوة شديدة عند القارئ المصري، بسبب ملامستها لأكثر من وتر حساس في حياته اليومية؛ في حين لم يتحمس لها النقاد بنفس الدرجة، لأسباب ذكرتها منذ قليل. وهذا الفتور من قبل النقاد، شجع الكتاب الحكوميين، للتحدث عن المؤامرة، وعن فوز الرواية بالجائزة، لا لشيء سوى لتشويهها لصورة مصر، والمجتمع المصري!

ولكن من يهتم بكلام أبواق السلطة هؤلاء.. يكفيني النجاح.. وهذا العرض المغري من أكبر دار نشر مصرية، لإعادة نشر روايتي الأولى، التي نفذت نسخها القليلة سريعًا من الأسواق، وعروض من أكثر من جريدة ومجلة، لكتابة مقالات أسبوعية أو شهرية على صفحاتها، خاصة إن مقالاتي اليومية كانت محجوزة، لتلك الجريدة التي خضت معها تجربة المقال للمرة الأولى.

والآن.. عندما أتجول في أرجاء شقتي الجديدة الفسيحة، وأتأمل سيارتي.. وأتذكر مشاعر الضيق والاختناق التي صاحبتني أعوامًا، أتساءل: أين كان هذا المصير الجميل مختفيًا عن عيني؟

من قاع هذا الصندوق أخرج رزمة الأوراق تلك.. أتأملها متعجبًا.. إنها تلك الرواية التي كنت منهمكًا في كتابتها منذ زمن، وأنا الذي كنت أظن أوراقها فقدت.

عدت من جديد إلى مكتب والدي، ولوقت، انهمكت في قراءة الأوراق، حتى إذا ما بلغت اللحظة التي انتهت عندها كتابتي، جاء قراري بإنهاء هذه الرواية، فهي ليست أبدًا بهذا السوء.. كما إنها ستغطي حالة الفراغ الفكري التي أشعر بها منذ انتهائي من كتابة روايتي الثالثة، وطرحها في الأسواق.

لذا أخرجت قلمي، وبدأت أعمل..

أسقط في يدي..

نسيت قوتي..

وعتادي..

لا شيء أملكه..

فكل شيء يذوب أمام سطوته..

ونفاذ نظراته..

في الأبدان.

على قمة درجات السلم..

متوسطًا وعائي الأقدار..

يدعوني..

"تقدم أيها الفاني"

أرتجف..

أرتعب..

ولكن لا يؤخرني شيء..

فما قد يحيق بي بين يديه..

قد يحيق بي في أي مكان على الأرض..

إذا ما كانت مشيئته..

لذا أتقدم..

"تقدم أكثر"

ما زال يطالبني بالاقتراب..

حتى أتوقف أمامه..

رغمًا عني..

نظراتي تتعلق بالوعاء إلى يمينه..

منه يشع وهج أضواء زاهية..

عابثة..

وصدى ضحكات أطفال فرحة..

وشذى فواكه، وورود..

"لماذا جئت أيها الفاني؟

ما الذي دفعك..

إلى هذه المغامرة الانتحارية؟

لأي شيء قتلت ابنيّ..

آرس، وهرقل؟"

من مكانه وسط الجموع..

يصيح هرميس موجهًا كلماتي..

"هادس يا مولاي..

بالتأكيد..

هادس هو من أرسله"

يهدر زيوس..

"صمتًا يا هرميس..

دع الفاني يتكلم"

أمامه لا معنى للخداع..

أشعر بصدره العريض..

كصخر تتحطم عليه الأكاذيب..

فأحكي كل شيء..

منذ أن غادرت قريتي ذات ليل..

تقودني القناطير..

إلى خيمة ديونيسيوس.

إلى أن جز سيفي..

رقبة هرقل.

أصغى زيوس إلى كلماتي..

دونما تعليق..

حتى انتهيت..

"لمَ كل هذا؟"

أطرقت مجيبًا..

"لأجل سرقة وعاء الخير"

"أعرف..

أنا أسأل..

ماذا كنت ستفعل..

بوعاء الخير"

"كنت سأغير به مصيري..

ومصير كل المعذبين..

من الفانيين"

ضحك الإله..

"انظر إلى نفسك يا كرونوس..

أي مصير هذا الذي ستغيره..

لقد غيرت مصيرك بالفعل يا رجل..

انظر إلى ما تملكه من قوة..

انظر إلى عتادك..

لقد حولت نفسك ـ بدهاء ـ

من مزارع تعيس..

إلى مقاتل أسطوري..

ألم تر ما صنعت يداك..؟

أنت قتلت أعظم محاربين في الكون..

آرس.. رب القتال ذاته..

وهرقل.. أقوى الرجال"

تنبهني كلماته إلى حقائق..

حجبها الغضب..

والسخط عن عيني..

"أنا لا أريد القوة..

أنا أريد الحياة الكريمة..

مثل أي إنسان..

أريد احترام إنسانيتي"

هذه المرة ضحك زيوس..

حتى اهتزت الأرض..

"تريد أن تكون إنسانًا؟!!

أهذا هو أقصى ما تبغي؟

انظر إلى نفسك أيها الغبي..

أنت أكبر بكثير من مجرد إنسان..

فلماذا تروم إلى الأدنى؟!

عن أي حياة كريمة تتحدث..

وأنت رجل بمقدوره..

أن يحكم الأرض..

أن يعب من خيراتها..

ما يشاء..؟!"

أوبكتني كلمات الإله..

أكل ما يغضبه..

إنني لم أحصل على ما أستحق..

بقوتي الخارقة؟!

ألا يحزنه قتلي لابنيه؟!

ألا ينشد الثأر؟!

"مولاي.. أنا لا أفهم"

"هذا لإنك لست بأهل لحمل هذه القوة..

أو هذا الدهاء..

ولكن دعني أعلمك..

دعني أرشدك للطريق الصحيح..

فهذا هو عملي..

وهذا ما أبغيه..

لسائر الفانيين"

تقدم مني خطوة..

أحاط كتفي بذراعه كصديق..

فارتجفت ارتباكًا..

قادني إلى حيث وعاء الخير..

"أهذا ما كنت تبغي؟

ما تملكه من قوة..

يؤمن لك خيرًا..

يفوق ما بهذا الوعاء..

أم إنك كنت تنوي التنازل عن قوتك..

بعد نجاح مسعاك؟"

"أنا فقط لم أفكر في هذا..

من قبل يا مولاي"

"دعني أوجهك إذًا..

أنا فقدت آرس.. وهرقل..

الاثنان اللذان كانا يؤمنان عرشي..

آرس.. بما يشيعه من فوضى..

وعنف على الأرض..

كان يؤمن عرشي..

من الكفرة والجاحدين..

والمعارضين لوجود إله مثلي..

وهرقل كذلك كان يفعل..

كونه عاش حياته كلها بين الفانيين..

فكان يعرف سرهم..

ويعرف كيف يحجّم خطرهم..

الآن أنا فقدت الاثنين..

ولكن عوضت بخير منهما..

قاتلهما ذاته"

تقافز قلبي لّما بلغني تلميحه..

"مولاي أنا..."

قاطعني..

"أنت أقوى فان في الكون..

أنت يجب أن تعمل معي..

أنت ستكون حامي الأرض..

من أخطار الكفار والجاحدين..

بالمقابل..

سأسمح لك بمواصلة امتلاك هذه القوة..

وإن كنت سأنزع عنك عتادك هذا..

فأنا أريد لقوتك..

أن تواجه الفانيين..

لا الآلهة..

ولكنني سأعوضك عن هذا العتاد..

بكل ما تقدر على حمله..

من هذا الوعاء أمامك..

قدر ما تشاء من حسن الحظ..

من خصب الأرض..

حلاوة الطعام..

وأيضًا..

من حب النساء لك..

احمل ما تشاء..

املأ جوالاً إن أردت..

وعد إلى الأرض..

ملكًا متوجًا..

باسمي..

إلهكم الأعظم..

زيوس"

على صفحة الألوان..

المتموجة بالوعاء..

ارتسم وجه فاتنة..

ترسل إلى شفتي..

قبلة عبر الهواء..

فخفق قلبي..

"فكر جيدًا"

هذا هو ما أفعله..

فدعني لحيرتي..

ماذا تريد يا كرونوس؟

ماذا تريد؟

* * *

أنا كرونوس..

بين البشر..

أنا الأقوى..

الأجمل..

الأغنى..

الأنعم..

أنا كرونوس..

حامي مجد الآلهة..

وتابع كلمة زيوس..

على الأرض..

أنا كرونوس..

كنت فلاحًا من قرية عند سفح تل...

كنت كرونوس الفقير..

التعيس..

كنت أحمل فقري على عاتقي..

مكبل بالنبذ والوحدة..

كانوا يتشاءمون مني..

ومن اسمي..

وكأنني من صنعت قدري..

كنت أعاني منذ مولدي..

كان زرعي قليل..

النبيذ لا ينزف من طرح كرمي الشحيح..

والزيت لا يسيل من زيتوني..

كانوا يقولون:

"كرونوس يحمل القحط أينما حل.."

ويقولون:

"كرونوس مكبل بغضب الآلهة.."

ويقولون:

"كرونوس معاقب.."

وكنت أتحداهم..

"أيعرف أحدكم جريمة لي؟"

فيصمتون..

أنا كرونوس..

يومًا أقسمت..

بحق صواعق زيوس..

بحق زلازل بوسيدون..

بحق براكين هيفيستوس..

بحق آلهة الأوليمب في عليائهم..

سألقنهم درسًا لن ينسى..

سأريهم كيف يتحدى هذا الضئيل الآلهة..

سأغير قدري..

سأرسم مصيري بيدي..

أو أهلك على المحاولة..

والآن..

من يضحك..؟

من السيد..؟

ومن العبيد..؟

أنا كرونوس..

قلت إني سأغير قدري..

سأرسم مصيرًا مغايرًا..

يحمل من الخير..

قدر ما حملته البدايات..

من فقر..

وتعاسة..

وها أنا ذا..

بررت بقسمي..

تمت

صفر

استيقظت هذا اليوم نشيطًا، صافي الذهن، مقبلاً على الفعل، كما اعتدت مؤخرًا.

نهضت من فراشي، قطعت الخطوات إلى الشرفة المغلقة، فتحت خصاصها، فاندفع دفء شمس ذلك اليوم الصحو، ليغمر وجهي وجسدي.. فأستعيد آخر ما علق من وعيي في فراش النوم.

أخرج إلى الشرفة.. أتنسم عبق الصباح.. يالها من حياة.. الشارع هادئ.. لا تسمع سوى أصوات الطيور، على الأشجار المتناثرة بطوله..

أمام عيني، على الرصيف المقابل، في البقعة المواجهة لشرفتي تمامًا، يعملون بجد. يحملون الأجزاء المعدنية الضخمة، محملة على سيارة نصف نقل، ويشرعون في تركيبها، وتثبيتها، وزرعها بأرضية الرصيف..

ـ ماذا تفعلون؟

أنادي مندهشًا.. فيجيبني أحدهم:

ـ كل عام وأنت بخير.. الانتخابات على أبواب.

قبيل الظهيرة.. تنتصب أمام شرفتي اللافتة.. عليها نفس الوجه.. يواجهني بنفس النظرة.. وعلى وجهه نفس الابتسامة..

صدر للكاتب:

- "زيوس يجب أن يموت" رواية، طبعة أولى **2010**، إصدارات التكية صبعة ثانية **2012**، دار اكتب

- "أزمة حشيش" مجموعة قصصية، **2013**، المكتبة العصرية للنشر

- "سيف صدئ، وحزام ناسف" مجموعة قصصية، **2013**، دار سما "الكويت"

- "مفتتح للقيامة" رواية، **2014**، دار هيباتيا

- "الروحاني" مجموعة، **2015**، دار عصير الكتب



أنا لست غاضبًا منه.

قالها يوسف قطيط حتى قبل أن أسأله..

- على العكس.. فقد أثبت لي صدق رؤيتي؛ إنه ما زال على عهده. فقط هو يحاول، بجهد بالغ، أن يئد روحه الثائرة.

ولكن حتى الأستاذ لم يكن متمسكًا، حقيقة، بدرجة التسامح مع الذات التي يبديها، لذا ما لبث أن سألني:

- هل تظنني أحمق؟ هل تعتقد بدورك أن لا جدوى مما أفعل؟ هل ترى إنه من الأفضل ألا نبالي، وليكن ما يكون؟

بحثت عن رد مناسب، يخفي ما بأعماقي أكثر مما يظهر، ولكن الكلام اندفع عبر فمي بغير ترتيب، فقلت آخر شيء كنت أتمنى قوله..

- أبي شارك في إضراب عمال النقل في مارس 1954

نظر إليّ بشيء من الذهول، قد يكون سببه إنني ...

من قبل بهذا الأمر طوال علاقة امتدت لأك... عامًا. وقد يكون بسبب المسافة الكبيرة الفا... وإجابتي..!




دار اكتب للنشر والتوزيع
DAR OKTOB PUBLISHING HOUSE